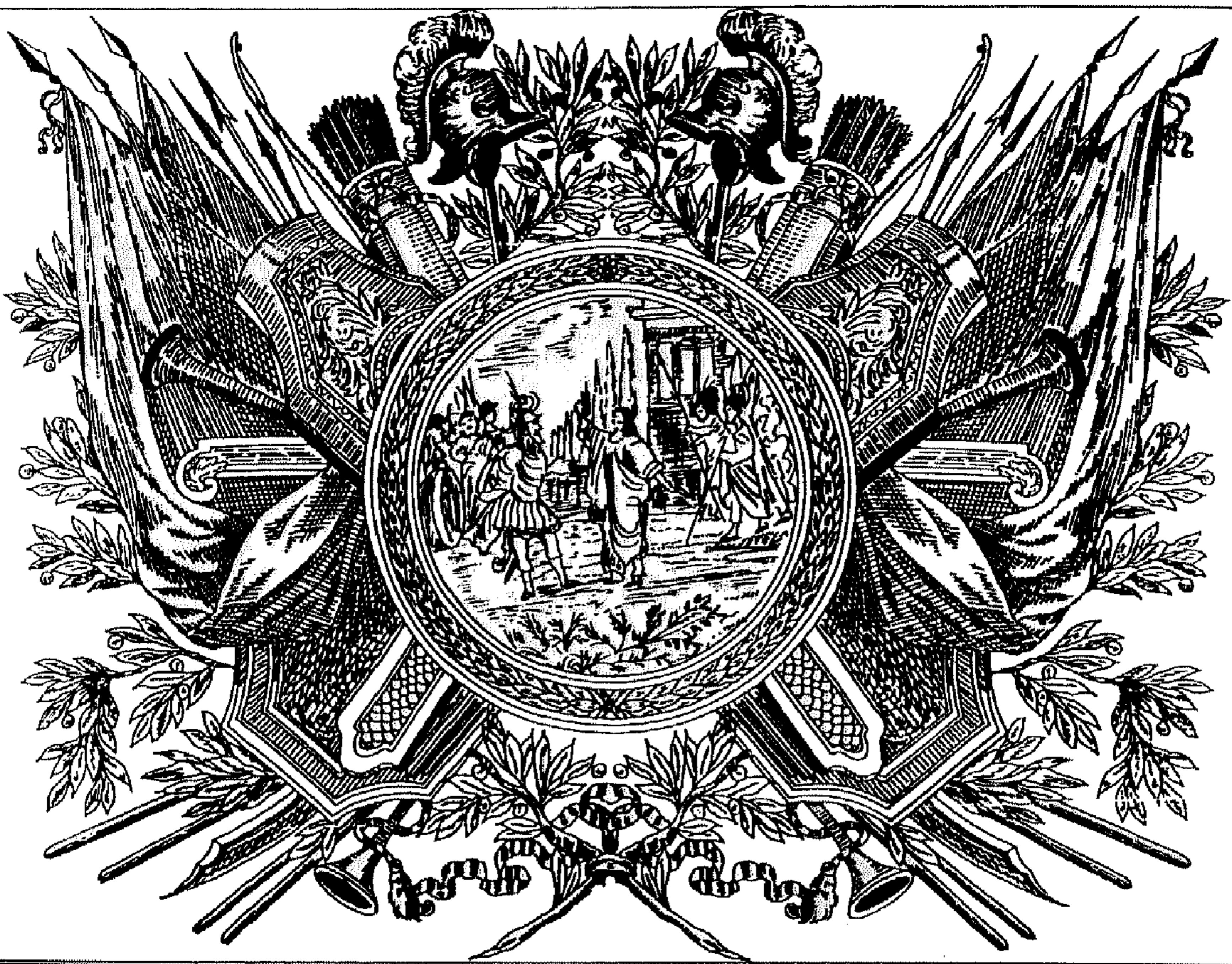


# أَحْكَامُ شَرْعَ وَمَسْنَاهُ هُبَّ عَالَمَيْتَ



36

01243

# دار المکتب الیانی

# الدكتور عالي شعيب



أَحَدَاثٌ وَمَسَايِّرٌ عَالَمِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ

الدُّكْتُورُ عَلَيٌّ شَفَاعِيٌّ

دارُ الْفِكْرِ الْإِنْذَانِيِّ  
بَيْرُوت

# دار المکر اللبناني

الطباعة والتوزيع

مکر بشارة - تجسس غلوب بنتك

هاتف: ٣١١٥٧٨ - ٨٦٢٣٩٢

fax: ٤٦٩٩ أو ٤٦٩٩ - ٥٦٦٠

تلفن: DAFKLB 23648 LE - بيروت، لبنان

جميع الحقوق محفوظة للتأشير

الطبعة الأولى ١٩٩٦

مطبع يوسف بيضون  
بيروت - هاتف: ٣١١٥٧٨ - ٨٦٢٣٩٢

## مقدمة

يتناول هذا البحث سيرة رجل قدر له أن يلعب بسياسة ألمانيا وأوروبا مدة طويلة من الزمن وهو أتو فون بسمارك . كانت سياسة ( الحديد والدم ) التي أصبحت شهيرة في كل مكان هي السياسة التي كرس بسمارك لها جهده وحنكته . كان يتبرم من سلطة المجالس النيابية ، ويسعى إلى حصر دورها في نطاق ضيق . ومع أنه كان يمثل العصر البائد ، إلا أنه جعل الحاضر يلين بين يديه ويتسمى طوع أمره إلى أن صب ألمانيا في قالبها الجديد ، وصاغ قالبًا آخر لأوروبا بأسرها في فترة النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وقد جعل من ألمانيا المعروفة بفلسفتها وعلمائها ألمانيا أخرى تعتمد على الدم وال الحديد والمهارة الحربية . وجعلها تسط سيطرتها على شؤون أوروبا . وقد سحرت سياساته الرامية إلى جعل ألمانيا القوة الكبرى في أوروبا والعالم ، الألمان المتطلعين إلى العزة والكرامة القومية ، وجعلتهم يتحملون ما يفرضه عليهم من قيود .

وعندما تسلم بسمارك مركز المستشارية كانت له آراء :

واضحة ، فعمل على تحقيقها بعزم وثبات ولقي نجاحاً باهراً . كان هدفه إحلال ألمانيا ، وعن طريقها بروسيا ، في مكان الصدارة في القارة الأوروبية . إن الدور الذي لعبه بسمارك في الإيقاع بين الدول وأصطيادها منفردة ليعطينا صورة أخاذة عن الأسلوب القديم في السياسة الدولية .

فلقد اختلف الباحثون في تحديد بداية القرن العشرين ؟ فالبعض اعتقد أنه يبدأ عام 1890 ، إذ في ذاك اليوم شهدت أوروبا أحداثاً هامةً تركت آثارها في مجرى العلاقات الدولية . ففي هذا اليوم شهدت أوروبا أفال نجم من نجومها ونعني به بسمارك المستشار الألماني الذي تولى السلطة عام 1862 . فالتغير في السلطة أدى إلى تغيير في السياسة الخارجية الألمانية .

وبعد وفاة بسمارك بقى شبحه مدة كبيرة مخيماً على ألمانيا وحافزاً لمن يخلفه . غير أن الخلف لم يصلوا إلى هذه الهمة التي كانت للسلف .

# الفصل الأول

## مداخل و مخارج في صعود بسمارك

كان النظام الذي وضعه نابليون لحكم ألمانيا حدثاً فاسياً في تاريخ الأمة الألمانية ، لكنه حمل في ثناياه كثيراً من الإيجابية إذ ساعد على إشاعة كثير من الأفكار المفيدة الطيبة . فإن الجماعات التي سادها دهراً طويلاً روح القناعة والاكتفاء الذاتي ، أخذت بفعل تبنته تلك الأفكار ، تنشط للقيام بالإصلاحات النافعة . وكان بين هذه الإصلاحات تبسيط عظيم بجغرافية ألمانيا السياسية المعقدة : وهو تبسيط ترتب عليه القضاء على مائة وعشرين ولاية صغيرة . وقد وضع هذا التقسيم الجديد لألمانيا في باريس سنة 1802 ، كنتيجة للتعويضات التي كان على نابليون أن يقدمها إلى الأمراء الألمان الذين أكرههم الفتح الفرنسي على التنازل عن أملاكهم على الضفة اليسرى لنهر الراين .

وعندما تحول الرأي العام الألماني ضد الحكم الأجنبي ، كان الرأس المفكر والقلب النابض في ألمانيا هي بروسيا . ففي تلك المملكة التي ظلت رحراً طويلاً من الزمن مخنطيساً يجذب إليه من كل فج الرجال ذوي الكفاية والمقدرة

لخدمتها ، نفذت إلى أعماق نفوس فئة قليلة من الوطنين المفكرين الشديدي النشاط الكبيري الهمة . وإنه لمن دواعي مجد وفخار ( شارنهرشت ) وكلاورفتر - وشتاين - وهاردنبرغ - أنهم نظروا إلى المسألة البروسية في واسع معاناتها . فرأوا أن بلادهم في حاجة ، لا إلى الإصلاح العربي وحده ، بل إلى الإحياء الوطني ، واليقظة القومية . وقد كانت نتيجة عملهم بوجه عام أنهم نفخوا في أبناء وطنهم روح العزة القومية ، ومنحوا جيشاً مستذلاً وأمة مستكينة بعض مزايا الحرية المجيدة . ولم يحدث غالباً أن أدرك بمثل الوضوح الذي أدرك به البروسيون وقتئذ هذه العمة ، وهي أن أسباب هزيمة منكرة كذلك التي أصيروا بها ترجع إلى العامل الخلقي الأدبي . وما كان إلا سياسياً كبيراً ضليعاً كشتاين يستطيع أن يفطن إلى أنه يجدر لبعث بروسيا بعثاً حربياً ، منع المدن البروسية قسطاً من الحكم الذاتي ، والعناية بأحوال الالاحين الاجتماعية . ولا يضيره أو ينقص من مدى بصره : *ير* ، أنه تلقى دروسه هذه من الفرنسيين ، الذين كانوا قد حرروا من قبل طبقة الفلاحين . ولم تزل الحركات الجبارية المتلاطمة للعقل الألماني التي تنتسب إلى هذه الفترة ، والمؤلفات الجليلة العديدة لكثير من المؤلفين الألمان ، تقديراً عاماً إلا بعد أن نشرت مدام دي ستايل سنة ١٨١٠ سفرها المبدع عن ألمانيا . حيث كشف الناس أن الأمة التي اجتاحت أرضها جيوش نابليون ، وعوملت بالازداء الذي هو من نصيب الأمم الخاضعة المنحطة

المكانة ، كانت في الواقع ربة كنز من الشعر والثر المعاصرين ثمين : كنز ذو اتساع وعمق في معانيه ، وذو غنى وابتكار في أشكاله ، وهو يفوق أي عمل حديث وضع في أي بلاد أخرى من بلدان أوروبا . وما وافت سنة ١٨١٥ حتى ألفت ألمانيا نفسها قوة في عالم الأدب والعلم ، حتى وإن لم تصبح وقتئذ وحدة سياسية . ولكن القمة الروحية التي وصلت إليها حينذاك ، ومجال التأثير الروحي الذي كانت تتمتع به ، لم تستطع قط أن تستعيدهما بعد ذلك ومن عجب أن الأدب الألماني بلغ ذروته في عصر غالب عليها فيه الضعف والاستكانة والانقسام السياسي ، وحينما كانت الروح الوطنية في أسفى درك . فليس الحكم النابليوني لألمانيا إذن بخال تماماً من الحسنات ، وليس تقدم القومية الألمانية الظافرة محصناً لها من مواطن المؤاخذة واللوم .

### حرب التحرير الألمانية / ظهور الروح القومية :

إن حرب التحرير الألمانية ( سنة ١٨١٣ ) ، بجانب أنها خالدة لتميزها بالقضاء على سلطان نابليون في وسط أوروبا ، فقد بذرت بذور تلك العاطفة القوية للولاء لألمانيا الكبرى ، تلك العاطفة المشبوهة التي حولت السياسة في العالم الحديث . فللمرة الأولى تملكت الشعب الألماني أمنية مشتركة ، وشاع فيه إحساس واحد . فلقد أودي كل ألماني بوطأة الحصار القاري والتجنيد الإجباري . فصار تحرير الوطن من نير الطغيان الأجنبي الذي لا يطاق ، ودرء الخطر الفرنسي

بطريقة ما ، أمنيتين يشتركان فيما بينهما القوم على بكرة أبيهم . ولكن التمايز كان بشكل خاص أقوى في شمال (ألمانيا) ، حيث تعاون الشعراء وال فلاسفة وكتاب النشرات على التبشير بإنجيل أمة ألمانية واحدة .

ومع ذلك فلم يكن ثمة إلى ذلك الحين أمة كهذه . وإنما كان الأمر مجرد تخمر ملتهب قوي للشعور القومي ، يمكن بفعله ومساعدته أن تنجذب أمة وتبني تحت توجيه سياسي حازم . ولكن هذا التوجيه لم يبرز إذ ذاك ، ولم تكن ولاية من الولايات الألمانية من القوة والباس ، بحيث تستطيع بمفردها أن تقهق نابليون ، وتضم جميع الألمان تحت لوائها .

ويعد المؤرخون البروسيون مأساة من مأساة التاريخ الإيراني أن العواطف الحرة القومية الجياشة التي أثارتها حرب التحرير تركت تبخر وتضيع عبثاً كما تضيع مياه نهر أفريقي في الفيافي والرمال ، وانه يرغم الجهد الجبار ، والمحن القاسية التي مرت بألمانيا في تلك الأيام ، قد خرجت بنظام تعاهدي وضع على نحو يشل نشاطها ، ويحرمها من أي سلطان فعلي في مجالس أوروبا السياسية .

فقد أزهقت في قسوة آمال خيار الألمان في أن الجهد الواسعة النطاق التي بذلوها في حرب التحرير ، ستسفر عن اتحادهم القومي وقيام حكومة دستورية في بلادهم . إذ لم يتكون الاتحاد . وإنما كون « مجمع » أو « ديت » Dict يضم

تسعاً وثلاثين ولاية ، لكل منها حق مباشرة سياستها الخارجية بنفسها ، وإن تمنع وحدتها إجازة وتنفيذ كل قرار هام يتخذه هذا المجلس التعاهدى . ولم يكن ثمة رابطة سياسية بين الولايات المنتظمة في الديت ، لأن دولاً غير ألمانيا كالدانمارك واللوكمبرغ كان لها كراسى فيه . إذ كان يغلب عليها نظم مشابهة من الاستبداد غير المستبر الذي ينزع إلى التخفي والسرية . ورغم تعهد ملك بروسيا رسمياً بمنع رعایاه نظاماً برلمانياً ، أفلح نبلاء بروسيا الاقطاعيون في منع عقد برلمان في برلين . فكان الأحرار الألمان - وهم أقلية على الدوام - يحسدون باريس ولندن مناقشاتهما البرلمانية الرائعة ، ويفكرن في تقصير بلادهم وجذبها السياسي ، وسائلون أنفسهم بما إذا كان الوطن قد كسب شيئاً ذا قيمة من وراء بذل الدماء الغزيرة ، وضياع الأموال والكنوز في الحروب النابليونية .

أما العلة الكبرى لهذه المحنة ، فقد نجمت عن اختلاف الألمان أنفسهم فيما بينهم في رسم خطة إنشائية لمستقبل بلادهم . فكان البعض منهم يصبو إلى قيام دولة ألمانية تحت حكم بروسيا ، والبعض الآخر إلى دولة ألمانية تدين بالولاء للنابليون ، وأخرون يرثون اتحاداً تعااهدياً تستطيع فيه النمسا وبروسيا والولايات الألمانية الصغرى أن تكون فرقاً متكافئة تتبادل التعاون فيما بينها . فلاحت ألمانيا للعالم الخارجي كأنها تحرك وتسير في ضباب فلسفى .

## تزعيم بسمارك العمل للوحدة الألمانية :

وجد جمهوريون في ألمانيا وخاصة في الجنوب الغربي منها ، وكانوا جمهورين نزقي الرأي ، يجتمعون بطبعهم إلى النضال ، ولكن حزبهم كان أقلية بشكل جلي . فقد كان معظم الألمان في مطلع سنة ١٨٤٨ مصلحين ومؤمنون بالوحدة الألمانية ، إلا أنهم كانوا يؤمنون بأن ألمانيا لا تستطيع أن تتحدد وفق المبادئ الحرة ، إلا عن طريق برلمان ينظم الأمة الألمانية بأسرها ، وي منتخب انتخاباً حراً ويستقل استقلالاً تاماً عن الدين الألماني العقيم الفائد الذي فرضه على البلاد مؤتمر فيينا الذي أعقى سقوط نابليون عام ١٨١٥ .

تشجع زعماء الألمان الأحرار بعزل لويس فيليب ، ودعوا - ولهم من غير أن يضمنوا تأييد الأمراء لهم - برلماناً تمهيدياً للاجتماع في فرانكفورت لإعداد العدة لانتخاب جمعية وطنية ، كان يرجى أن تخرج من مداولاتها السلمية ألمانيا الجديدة . والتأم عقد هذه الجمعية في ١٨ أيار ١٨٤٨ . وكانت تحوي بعضاً من أكرم الشخصيات ، وأنبل العقول في ألمانيا . وبعد مداولات متشعبة محكمة اتسمت بالجد الكبير ، أخرجت دستوراً ديمقراطياً لألمانيا المتحدة : دستوراً كان أبرز وأثمن ظاهرة فيه بنود طويلة من الأحكام المدققة لحماية الحرية الشخصية . وكانت هناك مشكلة تواجه أنصار الوحدة . إذ كانت ألمانيا وقتئذ اتحاداً تعااهدياً يتالف من دول ذات سيادة ، تهتم كل منها إلى أقصى حدود الاهتمام بالاحتفاظ أشد

المحافظة بحقوقها وامتيازاتها . ولكن لم يكن ممكناً الوصول إلى اتحاد ألماني جديد أعظم تماساً وتراساً من الاتحاد القائم ، إلا إذا قبلت الدول الأعضاء إنقاذه سلطاتها المستقلة بعض الانقاذه .

وأدرك برلمان فرنكفورت أنه لن يستطيع التقدم في أعماله ، بانتهاجه طريقة المشاورة الإنفرادية مع كل حكومة من الحكومات الثمانية والثلاثين التي تؤلف الاتحاد الألماني . كما أدرك أن فرص الاتفاق بعيدة جداً . لهذا السبب فإنه بعد أن فررت الجمعية - ولو أن قرارها كان بأغلبية أربعة أصوات فقط - إقصاء النمسا من الاتحاد القادم ، عقدت العزم في حكمة على أن تدعى أقوى سيف في ألمانيا إلى نصرتها والدفاع عن قرارها فعرضت تاج الاتحاد على ملك بروسيا فرديريك وليم الرابع ( ١٨٤٠ - ١٨٦١ ) .

ييد أن هذا الملك كان لا يزال أوتقراطياً في دخلية قلبه ، وكان جيشه لا يزال عظيم الولاء لعرشه ، ولا يخصص نفسه لخدمة سيد سواه ، وكان وجوه دولته لا يزالون غير مقتنعين بأن ثمة أي نفع يمكن أن تجنيه بروسيا من وراء الحركات الديمقراتية . . كما وقف على الدوام بين فرديريك وليم والأحرار الألمان حائل منيع من الحقد وعدم الثقة ؛ هو الدم الذي أهرق عند متاريس شوارع برلين المطالبة بالحرية والوحدة .

وحدث أن الملك رفض دعوة برلمان فرنكفورت لقبول

عرش الامبراطورية وأجاب أن الملك لن يقبل تاجاً غير مرفوع  
إليه من الأمراء ودستوراً لم تقره حكومات ألمانيا .

وأخذت الرجعية البروسية تجمع صفوفها وعنفها .  
فتمكن الجيش البروسي من سحق الفتنة في سكسونيا وبادن  
وهانوفر ، وكتب وبالتالي اعتراف جميع الأمراء الألمان الذين  
كانوا يهلكون خوفاً من فقدان عروشهم .

ولكن بعد أن هدأت ريح الثورة ، وجد ملك بروسيا  
نفسه وجهاً لوجه أمام (شفارتزبرغ) ، سيد دولة نمساوية  
ناهضة . فقام صراع مريض بين سياسي هذين الحاكمين  
المتضاربين حول زعامة الولايات الألمانية . وأسفرت النهاية  
عن هزيمة بروسيا هزيمة سياسية بالغة الإذلال لها . وكانت  
قوات الدولتين المتنافستين على شفا الاشتباك معاً . ولكن  
الحرب تجنبت ، إذ رأى فرديريك أن جيشه ليس بكم لمنازلة  
خصمه . واضطررت بروسيا لشراء صلح فرير في (المتر) ، ٢٥  
تشرين الثاني ١٨٥٠ ، بتسليمها الكامل بمطالب النمسا .

وكان بين المراقبين لهذه التطورات شاب من وجوه  
بوميرانيا ، عضو في برلمان برلين ، ومن أصحاب الأموال في  
بروسيا ، ولد في العام الذي وقعت فيه معركة واترلو ١٨١٥ .  
وقد أبان في هذه الأزمة عن شجاعة في الرأي ، فصاحة في  
اللسان ، وقوة في الإسمان جعلت له سلطة ونفوذاً فاقاً كثيراً ما  
للوزراء عادة منها : هذا هو أوتو فون بسمارك الذي ليس له أن  
يكون من أعظم الشخصيات في تاريخ بروسيا . ولقد أتي قوة

بدنية فائقة ، وكان خطيباً لاماً قوياً ولغوياً ماهراً . ولد مطبوع على أفانين السياسة وحيلها ، وجمع في شخصه جميع المناقب التي يتصرف بها السياسي الدهليزية . وكان يتغى هو أيضاً قيام اتحاد ألماني . ولكنه لم يكن يرغب في أن يتم ذلك بتضحيه الملكية البروسية . أو التقاليد البروسية . ولقد قال : « إننا نصبو جميعاً إلى أن ينشر النسر البروسي جناحيه كدرع وحاكم من ميونخ إلى دنرسبرغ ، ولكن يجب أن يكون مطلقاً من كل قيد ، غير مشدود إلى ( ديت ) متحكم جديد ، فإننا بروسيون ، وسنظل بروسين » .

ولقته المبادىء المحافظة الموروثة القوية التي يتحلى بها أعيان البروسين أن مستقبل بلاده سيشكل ، لا بخطب السياسة الأحرار الذين يقلدون النظم البرلمانية الإنكليزية تقليداً أعمى ، وإنما بالنظام العسكري الصارم . وقد ملأ قلبه فرح طاغٍ ، وابتهاج شديد ، لفشل برلمانات فرنكفورت ، وإنفاق خطط ملكية في أرفت . فإنه لم يكن بمقدوره أن يطبق فكرة وجود برلمان يعلو سلطانه سلطان ملك بروسيا ، ومن حقه أن يحرك جندياً من جنود الجيش البروسي أو مدفعاً من مدافعه . ولذا أشار - مخالفاً رأي ( رادوفتز ) كبير وزراء بروسيا - بابرام صلح مع النمسا ، فإنه مهما كان ذلك الصلح مهنياً ( مزياً ) ، فقد يكون خيراً من هذا الهدف البغيض ، وهو حبس النسر البروسي في قفص عصبة ألمانية .

وباختفاء الزعيم النمساوي مترنيخ وبروز بسمارك في

الميدان السياسي ، تطورت المنافسة بين النمسا وبروسيا ، وهي المنافسة التي ترجع إلى عام ١٧٤٠ حينما سلب فردرريك الثاني سيليزيا من ماري تريزا ، والتي تطورت بخطى سريعة مدببة إلى نهاية عنيفة في ساحة (Sadowa) سنة ١٨٦٦ ، حيث هزم البروسيون النمساويين ، ودحر العالم الجديد العالم القديم ، ويدفعه هائلة فك الريخ الألماني قيوده من سيطرة النمسا القديمة التي لم تتمكن حتى مطرقة نابليون الجبارة من تحطيمها . وتمكن البروسيون بأسلحتهم الدقيقة الفتاكة من إقصاء روح مترنيخ المسيطرة بعيداً عن نطاق الرايخ الألماني ، وذلك بطريقة أفعل وأدوم مما أسفرت عن ثورةينا عام ١٨٤٨ .

وما ساعد بسمارك على النجاح في سياساته أن بروسيا كانت على النقيض من النمسا . فقد كانت أوثق منها تضامناً ، وأكثر كفاءة ، وأعلى كعباً في مدارج التقدم . نعم ، بقيت الصناعة في أكثر نواحيها تسير على المستوى والأشكال الأهلية القديمة ، يعوزها رأس المال وينقصها التنظيم ، وبلغ من درجة تأخرها في شوط التطور والارتقاء ، أنه في سنة ١٨٤٠ ، كان أقل من ٤٠٪ من أنوال النسيج التي تملكتها تدار بالبخار . ولكن كانت قد وضعت من قبل نظم تساعد على التقدم الصناعي والتجاري . ونظراً لأن مناجم الفحم وال الحديد كانت متوفرة في أجزاء ألمانيا ، فإن الجو كان صالحًا فيها ، كما حصل في إنكلترا ، لقيام الصناعة . وقد أقيمت المصانع وقام

معها طبقة جديدة من العمال .

### مزايا بروسيا / نجاح بسمارك :

إن المزايا التي اخترت بها بروسيا إلى جانب تطور الأحداث أدت إلى نجاح بسمارك في تحقيق وحدة الشعب الألماني حول معركته في توحيد ألمانيا . في سنة ١٨١٨ قام اتحاد جمركي أو « زلفرين ». ويرجع أكبر الفضل في قيامه إلى ماشن Massen وزير مالية بروسيا في ذلك الحين . وكان يقصد من ورائه ضم الممتلكات البروسية المبعثرة بعضها إلى بعض بتعريفة جمركية منخفضة . وقد بلغ من نفع هذا الاتحاد الجمركي ، ونفع الطرق البروسية الجديدة ، وخلاص ذلك تحفظ المكوس الداخلية والرسوم الجمركية في داخل أرضه ؛ إنه أفلح في خلال ثلاثة عاماً في جذب الولايات الألمانية إلى الانضمام إلى ذلك الاتحاد الجمركي . وبهذا العمل الجليل وضعت أسس دولة ألمانيا متحدة تحت هيمنة بروسيا على دعائم متينة قوية .

ثم ظهرت بشكل واضح على مر الأيام مزايا أخرى لبروسيا أعانتها على تبوء مركز الزعامة في الأمة الألمانية . فقد كانت النمسا كتلة غير متجانسة من الولايات المتعددة اللغات ، وكانت مشغولة بمشاكلها الداخلية الشائكة التي جرتها في ذيولها محاولتها مصالحة شتى أجناس بعضها البعض . وبينما كانت النمسا تتجذب أكثر فأكثر صوب الصراع الدولي في

الشرق ، أخذت مصالح بروسيا تتركز داخل نطاق الرايخ الألماني نفسه . وعلى حين كانت سياسة النمسا في عهد مترنيخ موجهة إلى هذا الهدف البسيط : وهو قمع جميع الميول القومية والحررة في بلادها ، والمحافظة على سلطان ملكية مطلقة ، وكنيسة مطلقة ، بواسطة نظام شرطي صارم ، فإن سياسة بروسيا كانت مشبعة بالغيرة العلمية ، مشربة بروح عملية تزع إلى التقدم .

فيین حکومه ليس لها مذهب سياسي إلا مذهب الطاعة والامتثال ، وحکومه تعمل وتجد لتنمية ثروة الأمة المادية ، وارتقاءها في سلم العلوم والمعارف ، لا يمكن أن يقوم توازن وتكافؤ . ولهذه الأسباب فإن الحقبة التي جاءت بين عام ١٨١٥ وثورة عام ١٨٤٨ ، تكاد تخلو من سناء المجد . بيد أنها تبرز كفترة استعداد تهیأ فيها العدة لاتحاد ألمانيا تحت التاج البروسي .

وفي خلال تلك الحقبة ظهرت وتطورت في بروسيا نظرية من نظريات الحكم ابتدعها فيلسوف عظيم وتأثر بها بسیارک ، ونظرًا لأنها تتفق كثيراً ومبادئ الشعب البروسي الخلقيه ونظمها ، تمت لها الغلبة في وقت قصير على النظريات الأخرى . ثم ذاعت بعد ذلك طولاً وعرضًا ، كعنصر أساسی في نظام كامل في المثالية الفلسفية . فقد دلل هيغل بكل قوة ذهنه الماضي الذكاء على المبدأ القائل بأن الدولة « إله يمشي

في الأرض» ، وأن الدولة أعظم من عودها ، وأن الحق يجب أن يدعم بالقوة ، بل أن الحق هو القوة . وبينما كان بنتام الفيلسوف الإنكليزي يدلل على أن غاية الدولة يجب أن تكون الحصول على أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد ، جهر هيغل بأن رخاء الأفراد وسعادتهم يجب ألا يؤبه لهما إذا ما تعارضا مع عظمة الدولة . فالقوة في نظره أمر مسوغ . وبما أن الدول قامت على القوة ، فالحرب هي جزء من متطلبات السياسة والسعادة القومية . ونادى بأن العالم موضوع في المركز الذي ينبغي أن يكون فيه . وقال : بما أن الروح هي التي تحكم العالم ، فكل ما هو ناجح لا بد أن يكون حسناً طيباً ، وأن غاية الدولة لا يمكن أن تكون الإحسان والجود العالمي ، بل ينبغي أن تكون دائماً هي سعادتها الخاصة بها وحدها والهيئة العليا التي فوق الدولة هي عالم الأرواح التي تزن الدولة بمدى نجاحها .

ومن السهل أن يشاهد المرء الخلاف الحاد الذي لا مفر من أن يشجر على الدوام بين هذا الإدراك النفسي الغامض للدولة - هذا الإدراك الذي وضعها في مصاف الآلهة - وبين النظرية المستمدة من مبادئ روسو التي تعدد الدولة نتيجة عقد اجتماعي قائم على محض الاختيار والرضا . ففي نظر هيغل أظهر الله نفسه في طبقة نبيلة أو حاكمة ، لا يصيّبها الضعف والقصور ، إلا عن طريق الانتخابات الشعبية .

## الفصل الثاني

### سياسة بسمارك لبلوغ السلطة

حرب القرم :

إن السبب الظاهر لحرب القرم هو الصراع بين الرهبان الكاثوليك والأرثوذكس حول حراسة الأماكن المقدسة في فلسطين ، فالرهبان الكاثوليك كانوا يعتبرون أن من حقهم حراسة الأماكن المقدسة بموجب معاهدة معقودة بين السلطان محمود الأول والملك لويس الخامس عشر عام 1740 . وبالمقابل كان الرهبان الأرثوذكس يدعون نفس الادعاء مستندين إلى معاهدة كوجوك كاينزدجيه الموقعة عام 1774 بين السلطان عبد الحميد والقيصرة كاترين الثانية .

كان التزاع في حد ذاته تافهاً ، ولكنه استمد أهميته من الحقيقة بأن قيصر روسيا نقولا الأول كان يعاين تعصيًداً قوياً المطالب الأرثوذكسيَّة . وكان يعتبر نفسه سيد أوروبا والمسؤول الأول عن المحافظة على الأوضاع الراهنة . لقد زادت ثقته بنفسه وبصحة سياسته ، بعد تأييد النمسا وبروسيا له . بالمقابل كان نابليون الثالث إمبراطور فرنسا يؤيد ادعاءات الكنيسة الكاثوليكية ، في وقت استتب له الأمر في الداخل

وكان بحاجة إلى انتصارات خارجية ليقوى نفوذه . فجاءته الفرصة من القيصر الروسي بإثارته قضية الأماكن المقدسة .

وانتهى هذا النزاع المتعب المثير للخواطر ، بوضع الحكومة التركية سنة ١٨٥٢ تسوية لم أثارت حنق القيصر الروسي . فأمر هذا الأخير بتبعة الجيش الروسي وحشده على نهر بروث . وأوفد بعثة متغطرسة إلى الأستانة برئاسة الأمير منشيكوف لطلب ، لا تقديم ترضية عاجلة فيما يتعلق ببيت المقدس فحسب ، بل أيضاً إبرام معاهدة بين الدولتين تفوق في مدى إرهاقها للسلطان العثماني جميع المطالب الروسية السابقة ، بحيث تضمن للقيصر في الواقع حق حماية جميع الرعایا الأرثوذكس في الدولة العثمانية . غير أن السلطان قرر رفض هذه المطالب برغم أن ( ستراطغوردي ردكليف ) السفير البريطاني في الأستانة نصحه بقبولها .

بعد معركة سينوب ونتيجة لخوف إنكلترا وفرنسا من اجتياح القوات الروسية للأستانة ، تقدم الأسطولان الفرنسي والبريطاني إلى البحر الأسود . وإن بالحرب بين تركيا وروسيا تجذب إليها فرنسا وإنكلترا . رئيس وزراء النمسا حاول مرة أخرى إنهاء النزاع بالطرق الدبلوماسية فدعا سفراء الدول الأوروبية - ما عدا روسيا - إلى عقد مؤتمر في فيينا . فقرروا في كانون الثاني ١٨٥٤ رفع مذكرة إلى الحكومة الروسية يطلبون فيها الانسحاب من إمارات الدانوب مقابل تعهد من الباب

العالی بأن يمنع المسيحيين امتيازات جديدة والإبقاء على المعاهدات السابقة المعقودة بين روسيا وتركيا سارية المفعول .

وفي أواخر شباط أذيرت الحكومتان الفرنسية والبريطانية ، روسيا بالانسحاب من أمارات الدانوب قبل ٣٠ نيسان . ولكن القيصر رفض الإنذار ، وأمر جيشه بعبور الدانوب مما أدى إلى إعلان الحرب من قبل بريطانيا وفرنسا في ٢٧ آذار ١٨٥٤ .

أما موقف النمسا وبروسيا فقد كان له أهمية فائقة . إذ أن غزو روسيا لن يكون ممكناً بدونهما . كان لكل من الدولتين موقف مختلف عن الآخر خاصة وأن إدراهما وهي النمسا لها مصالح في البلقان بينما روسيا ليس لها مصلحة هناك . إلى جانب ذلك لم تكن تنظر بعين الرضا إلى احتلال روسيا لإمارات الدانوب لأن هذا يؤدي إلى ازدياد نفوذها في البلقان حيث تطمع هي أن تكون المسيطرة بدلاً من روسيا . لذلك عقدت مع بروسيا في ٢٠ نيسان ١٨٥٤ معاهدة دفاع مشترك جاء فيها عزمهما على مقاومة كل جيش يقترب من حدودهما في البلقان . وعندما اجتاحت جيوش القيصر الدانوب سارعت حكومة النمسا في ٢ حزيران إلى تقديم إنذار شديد اللهجة إلى روسيا تطالها بسحب جيوشها إلى ما وراء الدانوب وإلا اضطررت إلى إخراجها بالقوة ، وانصاع القيصر للإنذار

## النمساوي وترابع الجيش الروسي .

سارعت بروسيا إلى إعلان حيادها في الحرب . إذ لم يكن لها مصالح مباشرة في الإمبراطورية العثمانية . وكان البروسيون منقسمون على بعضهم ، الأوساط المحافظة وعلى رأسها الملك كانت ترى ضرورة اتخاذ موقف يتناسب مع موقف النمسا . وهناك موقف آخر قاده بسمارك الذي أراد فتح معركة الوحدة الألمانية مع النمسا . فراح ينادي بالوقوف موقفاً معاذياً للنمسا يسمح لبروسيا بأن تكون الدولة الأقوى بين الدول الألمانية . كان بسمارك ينادي بتوحيد ألمانيا وكان يرى النمسا هي العائق الوحيد في وجه الوحدة .

في ٨ آب ١٨٥٤ اشتركت بريطانيا وفرنسا والنمسا بوضع مذكرة حددت فيها شروط الصلح بناء على اقتراح الإمبراطور الفرنسي نابليون . غير أن بروسيا عارضت هذه المعاهدة على أساس أنها تتعارض مع معاهدة الدفاع المشترك التي وقعتها مع النمسا في ٢٠ نيسان ١٨٥٤ وطلبت من حكومة فيينا الوقوف على الحياد . واستطاع بسمارك ، ممثل بروسيا في مجلس فرنكفورت والخصم العيني للنمسا ، استطاع أن يقنع مجلس فرنكفورت برفض الاعتمادات التي طلبتها النمسا من أجل تجهيز جيش للدخول في الحرب إلى جانب فرنسا وبريطانيا مما أدى إلى إفشال خطة النمسا . وهذا يكون - بسمارك قد أبطل مفعول التحالف الفرنسي البريطاني النمساوي وبالتالي

حرم فينا من لعب دور كانت تطمح فيه في البلقان . كما كان ذلك مؤشراً على أن بسمارك فتح معركة الوحدة الألمانية مع النمسا . وما هذه الخطوة إلا سيعقبها خطوات لتحقيق هدفه .

### بسمارك رئيساً للحكومة :

إن تحقيق الوحدة الإيطالية على يد دولة البدمونت الصغيرة من حيث القوة العسكرية والمساحة ، أنشئت الأمال لدى الألمان لتحقيق الوحدة الألمانية على يد بروسيا الدولة الكبيرة من حيث القوة العسكرية والمساحة . لقد كانت ألمانيا ، مقسمة إلى 38 دولة مجتمعة في اتحاد فدرالي ، فكانت النمسا هي المسيطرة على هذا الاتحاد باعتراف مؤتمر فيينا لعام 1815 الذي اعتبر امبراطور النمسا رئيساً للاتحاد الجermanي .

بروسيا كانت ترغب بدورها أن تترأس الاتحاد الجermanي بدل النمسا ، لأنها كانت تعتبر نفسها أكبر وأقوى دولة ألمانية ، وبالتالي كانت ترى بأن مسؤولية تحقيق الوحدة الألمانية تقع على عاتقها .

كانت بروسيا ترغب في تحطيم ذلك القيد الذي طوّقها به مؤتمر فيينا والانطلاق في سياسة قومية مستقلة . كما كانت ترى في بقاء الاتحاد بقاء للسيطرة النمساوية على الوطن الألماني ، وبالتالي بقاء بروسيا رغم قوتها ونشاطها تحت السيطرة النمساوية .

يبقى أن الصراع بين النمسا وبروسيا مسألة كثيرة التعقيد ومن الصعب إثارتها . فإن النمساويين لم يكونوا أجانب غرباء في نظر الألمان . بل كانوا يعدون بالأحرى عظماً من عظمهم ودماً من دمهم - جزءاً مكملاً لحياتهم . مع أن الكثيرين من الألمان تجيش في نفوسهم آمال بالوحدة الألمانية ، كانوا يهلكون وجلاً من شبح الحرب التي قد يجبرون على خوضها ضد النمسا ، ويصرخون مطالبين بجعل ألمانيا دولة واحدة ، بينما كانوا يغمضون أعينهم ، حتى لا يرون الثمن البغيض - ولكنه الثمن الضروري - الذي سيلزمون بدفعه . ولو أن استفتاء للشعوب الألمانية كان أجري في أي وقت خلال العقد السابع من القرن المنصرم ، لما أقرت أغلبيتها حرباً ضد النمسا ، أو وضع ألمانيا تحت سيطرة بروسيا . ولم تكن حكومة تستطيع أن تفكك بالنهوض بهذه العمل الضخم سوى حكومة حزفت أمرها في قسوة وصرامة على الضرب بالرأي العام عرض الحائط ، وال تعرض لخطر انقسام ألمانيا ، ومواجهة حرب أهلية بوياراتها الكثيرة ولم يكن ليضمن نجاح الوصول إلى هذا الهدف الكبير سوى أحكام الاستعدادات الحربية والدبلوماسية وأدقها .

لكل هذه الأسباب السالفة الذكر مع خطر زوال الزعامة النمساوية في أوروبا الوسطى إذا ما قامت فيها دولة ألمانية فتية قوية جعل النمسا لا تريد سماع فكرة الوحدة الألمانية وكان من المتظر نجاح المساعي النمساوية لو لا أن الظروف أوجدت في

ذلك الوقت في بروسيا رجلاً قوياً يعرف ما يريد ويعرف كيف يصل إلى ما يريد وأعني به بسمارك . هذا الرجل هو الذي جعل المساعي الرجعية النمساوية تبوء بالفشل وسار بالشعب الألماني بقوة وثبات نحو الوحدة التامة .

### سيرة بسمارك :

ولد في سنة ١٨١٥ في براندبورغ البروسية . كان ينتمي إلى عائلة بروسية عريقة في أرستقراطيتها محافظة على التقاليد العسكرية وعلى ولائها للعرش البروسي . تلقى دروسه في برلين ثم دخل العدلية وعمل فيها فترة وجيزة عاد بعدها إلى بلده ليمارس العمل في أراضي عائلته الواسعة . قام بدور كبير في السياسة الداخلية البروسية بين أعوام ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٠ حين انتخبه سكان المقاطعة ممثلاً لهم في المجلس النيابي حيث قام بواجبه خير قيام لما أوتي من موهبة خطابية وحجة قوية بلغة . ثم عين بعد ذلك ممثلاً لبلاده في فرانكفورت أي في مجلس الاتحاد . شغل خلال العشر سنوات السابقة لتوليه رئاسة الحكومة مراكز دبلوماسية من الدرجة الأولى في بلامطات أوروبا في سان بطرسبرغ وفي باريس . ولذلك فإنه قد اتصل بالمشكلات الدولية الكبيرة . وكان هذا الاتصال ضرورياً للغاية ، لنهجه السياسي الداخلي . في بطرسبرغ قاس ضعف امبراطورية روسيا وتمكن في باريس من أن يقترب من نابليون الثالث ومن تقييمه .

إن شخص بسمارك الضخم الجبار الذي كان يرى أن الرجل ما ينبغي له أن يلقى ربه إلا بعد أن يدخن مائة ألف سيجار ، ويجري في جوفه خمسة آلاف زجاجة من الشمبانيا

إن شخص بسمارك لهو استجابة الطبيعة السخية الواسعة الكرم للشروط القاسية التي كان يفرضها هذا العمل الهائل على من يتقدم للأضطلاع به . فإن من خصائص ذلك الرجل الفذ ، أنه بينما كان مرتاً غاية المرونة في الجزئيات ، أدرك من بادئ الأمر الوجوه الكبرى للمسألة الألمانية ، ولم يسمع بتاتاً لأية خمسة من همسات الضمير أن تتدخل في تنفيذ خططه ، ففي سنة ١٨٦٢ ، أي بعد مضي عام على وفاة كافور - أفضى بسمارك إلى رئيس الوزراء البريطاني دزرائيلي يقصده في إشهار الحرب على النمسا في أول فرصة مواتية . وقد قال يومئذ ذلك اليهودي النافذ البصيرة لمن حوله : « خذوا حذركم من هذا الرجل ، فإنه يعني ما يقول » . والحق أنه ما مضت أعوام أربعة حتى أشهر بسمارك الحرب التي رأى من أول الأمر لزومها لتحقيق خططه السياسية . هذا يرغم أن ألمانيا قاطبة كانت معادية لهذه الحرب كما أشرنا ، مستنكرة إياها ، ولم يكن له من الأتباع غير فريق العسكريين . وقد تميز حكمه العجيب العظيم - الذي دام من أيلول سنة ١٨٦٢ إلى آذار ١٨٩٠ ، تميز في بدايته بمبادرة من تلك المبارزات الدستورية النادرة ذات الأهمية الدائمة في تاريخ الأمم . فإن وليم الأول الذي تقلد زمام الأمر من بروسيا سنة ١٨٥٨ بوصفه

وصياً على العرش حين استحكمت أعراض الجنون على أخيه الملك فرديك وليم الرابع - كان جندياً بسيط المظاهر ، حي الضمير ، يؤدي واجباته في أمانة . وكان يمقت مقتاً عميقاً جميع الحركات الشعبية ، نتيجة لخبرته بثورة سنة 1848 ؛ ولم يكن ذلك الملك الكهل متخلياً بأية سجية من سجایا المثالية الألمانية ، بل كان يكفيه أن يعمل على أن تصبح بروسيا قوية ، بحيث لا تجبر مرة أخرى بسبب ضعفها الحربي على أن تغضن الطرف عن إهانة توجه إليها . ولقد وجه هذا الملك في البرت فون رون وزيراً للحرب حسبما يهوى فؤاده . فرسما معاً خطة لتكبير الجيش الروسي وإعاده تنظيمه . ثم قدموا مشروع قانون إلى البرلمان البروسي يقضى بزيادة عدد الجيش . وجعل مدة الخدمة العسكرية ثلاثة سنين بدلاً من سنتين ، وزيادة الاعتمادات المالية للجيش . ولكن المجلس الأدنى ( مجلس النواب ) رفض ذلك المشروع .

وأبى كل من الملك والمجلس أن يحيط قيداً أنملاً عن موقفه . وتعقد المأذق ، وطال أجله . فالبرلمان يأبى الموافقة على زيادة الجيش وتقديراته ، وفون رون وسيده الملك يجندان فرقاً جديدة ، كان المال المطلوب وافق عليه البرلمان بالفعل . وأقيم بمناسبة رأس عام 1861 احتفال مهيب لتقديم الإعلام للفرق الجديدة . وفي اليوم الثاني مات فرديك وليم الرابع ، فارتقى وليم الأول أرثكة الملك ، وجابه في مطلع حكمه هذه الأزمة الدستورية الكبيرة . فأمر في 11 ذار سنة 1861 بحل

مجلس النواب ، وأجريت انتخابات عامة في ٦ أيار . ولكنها خلقت آماله . فقد أعادت مجلساً أقل محافظة ، وأشد تصميماً من المجلس السابق على الإشراف على أعمال الحكومة .

تآزم الخلاف بين الفريقين ، ولم يبت مسألة إطالة مدة الخدمة العسكرية إلى ثلاثة سنين ، بل نادى البرلمان بأنه يجب أن يكون السيد المطاع - كما هو الحال مع البرلمان الإنجليزي - وأنه ينبغي أن تقرر شؤون الجيش والمالية والسياسة الأجنبية وفق إرادة الشعب ، حسبما يعبر عنها ممثلوها . ولو أن هذا المطلب سلم به يومئذ ، لاتخذ تاريخ ألمانيا وأوروبا بأكمله وجهة أخرى .

بيد أن ما لقيه مجلس النواب في ذلك الوقت من مقاومة ناجحة يرجع إلى تدخل بسمارك القوي الصلب العود . فقد دعا فون رون لإنقاذ الموقف . وقبل بسمارك أن يتقلد رئاسة الوزارة .

#### فلسفة بسمارك السياسية :

ما إن عين بسمارك رئيساً للوزارة عام ١٨٦٢ في بروسيا حتى بادر إلى العمل المجدى . وقد قال بعد تعيينه بأسبوع واحد : «إن المشاكل الكبرى القائمة اليوم لا يمكن حلها بالخطابات وقرارات الأغلبية وإنما بالحديد والنار» .

كانت سياسة (الحديد والنار) التي أصبحت شهيرة في كل مكان هي السياسة التي كرس بسمارك لها جهده وحركته .

فقد كان يبغض البرلمانات والمجالس النيابية ولا يجاملها . ومع أنه كان يمثل العصر البائد ، إلا أنه جعل الحاضر يلين بين يديه ويتمشى طوع أمره إلى أن صب ألمانيا في قالبها الجديد ، وصاغ قالباً آخر لأوروبا بأسرها في فترة النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وقد جعل من ألمانيا المعروفة بالفلسفه والعلماء ألمانيا أخرى تعتمد على الدم والحديد والمهارة الحربية وجعلها تبسط سيطرتها على شؤون أوروبا . وقد قال أحد معاصريه من الألمان : « إن بسمارك يرفع من شأن ألمانيا في خط من شأن الألمان » . وقد سحرت سياساته الرامية إلى جعل ألمانيا القوة الكبرى في أوروبا والعالم الألمان المتطلعين إلى العزة والكرامة القومية ، وجعلتهم يتحملون ما يفرضه عليهم من قيود .

وعندما تولى بسمارك رئاسة الوزارة نفخ روحًا من الشجاعة في الملك الوجل الذي كان قد كتب فعلاً إعلان تنازله عن العرش ، وواجه هجمات السياسيين العنيفة . ورغم إعصار من الطعن والهجو ، احتفظ بسمارك بوجهه نظره بأن الجيش في بروسيا أمر مقدس يجب ألا يخضع لأية سيطرة برلمانية . ومما هو جدير ذكره أنه عندما وضعت الحرب ضد النمسا أوزارها سنة 1866 ، حصل بسمارك على قانون تضمينات صدق فيه البرلمان على النفقات التي كانت الحكومة قد تكبدتها من غير أن تناول تصديقه . ولم يبد على بسمارك أي مظاهر من مظاهر التوبة والندم . فإنه لم يكن مستعداً - لا في

هذا الوقت ولا بعده - أن يقبل السير بمقتضى النظام البرلماني الإنجليزي . وقد مكنته انتصار الجيش البروسي الساحق في تلك الحرب من أن يتحدى آراء الأعضاء الأحرار الذين كانت لهم الأغلبية في البرلمان من غير أن يخشى عقاباً ، وأن ينقش نقشاً عميقاً في الحياة الدستورية الألمانية هذا المبدأ ، وهو أن البرلمان وإن أجاز ضرائب جديدة ، أو ناقش مشروعات القوانين ، فإن هناك أموراً ثلاثة خارجة عن نطاق سلطاته وهي : ليس له أن يتناقش في المسائل الخاصة بالجيش ، ولا أن يضع سياسة الدولة ، ولا أن يؤلف أو يقيل الوزارات كما هو الحال في إنكلترا ، وقد استمرت هذه المبادئ يسترشد بها في الأوضاع الدستورية الألمانية حتى آخر أيام إمبراطورية آل هو هنرولدن في أواخر الحرب الأولى . فلم يكن إسكات البرلمان ، والعمل على إصلاح الجيش إلا مقدمة للعمل الخارجي بالنسبة إليه : وطرح في إحدى مقابلاته مع سفير النمسا ، وبالفاتح محددة ، مسألة مستقبل ألمانيا : فعلى دولة آل هابسبورغ أن ترضى طوعاً أو كرهاً ، بالتخلي عن الدور الذي كانت تمارسه في الشؤون الألمانية و « تحول مركز نقلها إلى بست » .

ومنذ هذه اللحظة ، تأكد شكل بسمارك ( وكان له سبعة وأربعون عاماً في سنة 1862 ) ، ومع الملامح التي ستصبح كلاسيكية ، بعد قليل : الرغبة في السيطرة ، وحدة وجهات النظر ، وخصوصية الفكر السياسي ، والعزيمة الصلبة . ويميله

كان يدأب على تأييد السمعة التي كان قد حصل عليها منذ كان يجلس في الدايت الجermanي ؛ فكان يحب ترك من يحدثه يصفع بجفاف نعمته ؛ ووحشية عباراته ؛ وإظهار الاحتقار بالنسبة لأسس القانون ؛ وكان يهمل الأسلوب الرقيق في الدبلوماسية التقليدية ، ويستخدم التهكم ، وفي بعض الحالات السخرية ، ويضيف إليها ألواناً من الاحتقار . وكانت هذه هي الوسائل التي يتغلب بها على من يتحدث إليه . ولكن القناع الصلب كان يخفي طبيعة عصبية وغير راضية ، وخدرا ، وحقودة ، حتى بالنسبة لخصومه الألمان أو منافسيه الممكثين وكان في وسع قوة العزيمة وحدها أن تسيطر على هذه المشاعر الصالحة ولم يلبث معاصروه أن اعترفوا سريعاً بسيطرته . ومع ذلك فلم يكن فكره ذا ثقافة واسعة : فلم يكن له ذوق فني ولا إحساس موسيقي ، ولم يكن يهتم كثيراً بالشؤون العلمية ، ولا حتى بالدراسات التاريخية مع قربها الشديد من اهتماماته السياسية اليومية ، ولكنه كان يتمتع بموهبات رجل الدولة : الوضوح القوي ، غير المختلط بأي تقليد ، أو بآية نظرية ، ولا بآية عاطفة مسبقة والاستعداد لرؤية المصالح المؤثرة وتقدير القوى الموجودة والحكمة في استخدام أكثر من سلاح ، والدقة في الملاحظة النفسية ، التي سمح لها بأن يقدر حالة تفكير الخصم ، ويرى نقطة ضعفه ، والفراسة والنفذ في تقديراته البعيدة المدى ، والشجاعة الفائقة التي تدفعه إلى التدخل بكل إمكاناته ، حينما يبدو له أن الفرصة قد أصبحت سانحة .

## بسمارك والأحرار الالمان :

ولهذه الأسباب جمِيعاً كانت المبادىء الحرة في نظر  
بسمارك قوة لا يُؤبه لها ، ولم يخشَ أن يظهر إزدراءه بها ،  
وكان يعتقد أن من يُسيِّر عليه سُوقها ، وإحلال مبادىء أخرى  
في مكانتها .

وَمَعَ أُنْ بِسْمَارِكَ كَانَ يُحِبُّ الْإِنْكَلِيزَ، وَيُحِبُّ فَدْرِهِمَ،

إلا أنه كان يرى أن مبادىء الحكم الإنكليزي ، إذا هي نقلت إلى بروسيا ، فإنها تجر عليها الخراب والنكبات . ولهذا كان من الضروري له قبل إعلانه الحرب على النمسا سنة 1866 ، أن يسحق أتباع هذه المبادىء وطلاب الحرية في ألمانيا . ولقد كان نصره في هذا المضمار تماماً باقي الأثر . بل لقد سطر فوزه بحروف من نار في تاريخ العالم . فإنه قاد ألمانيا في طريق سياسات بعيدة الأهداف من التوسيع ، تقوم على تنفيذ برامج حربية وبحرية طويلة الأمد . وكانت الدولة في عينه قوة وال الحرب - كما عُلم كلاوزفه القائد والكاتب الحربي الذاي  
الصيت ( 1781 - 1831 ) - إن هي إلا مواصلة السياسة ، والغاية والواسطة تفاعلاً إحداها مع الأخرى . فكلما ازدادت السياسة أطماعاً ، ازداد نطاق التسلح ، وكلما ازداد نطاق التسلح ، اتسعت مجالات السياسة . ولهذا فإن تحول أوروبا إلى معسكر مدجج بالسلاح كان نتيجة محتملة لهزيمة الأحرار البروسيين عام 1862 ، وكانت طريق مأمونة العقبى ، طالما كان بسمارك ممسكاً بس坎ان الدولة .

### المشروع النمساوي لمواجهة بسمارك وفشلها :

في مستهل الأيام الأولى من وزارة بسمارك قامت عقبة أوشكت أن تهدم خططه كلها . وزاد من خطورة هذه العقبة تواريها عن الأنظار . ذلك أن النمسا وجهت دعوة إلى الأمراء الألمان لعقد مجلس منهم في فرنكفورت للنظر في مشروع

قدمته لإصلاح الدستور التعااهدي للريحخ الألماني . رأى بسمارك أن هذا المشروع يمثل مكسباً للنمسا ، وعلى حساب بروسيا ، ولذلك عمل على إفشاله ولم يشارك في المؤتمر ، وأرسل برأيه إلى المؤتمر ، الذي افتتح في 4 آب 1863 ، مصراً فيه على ضرورة أن يكون لبروسيا مثل ما للنمسا في الاتحاد وبخاصة في رفض التصديق على إعلان الحرب ، وفي مسألة رئاسة الاتحاد ، وأنها لن تتنازل عن أي حق من حقوقها إلا لبرلمان يمثل الأمة الألمانية كلها .

تلازم عام افتتاح المؤتمر بضربة وجهها بسمارك إلى النمسا في بداية حكمه . فانتهز فرصة ثورة بولندا ، في نفس السنة ، الواقعة تحت الاحتلال الروسي وعزم على عدم مضايقة روسيا التي كانت قد استخدمت الشدة في قمع الثورة البولندية . بذلك انفصل بسمارك عن اتجاه الرأي العام في إنكلترا وفرنسا وحتى في النمسا ، الذي كان يعطف على الثورة البولندية ، ومد يده إلى روسيا وعقد معها اتفاقية حربية تحمل في ظاهرها دلائل الاهتمام المشترك في بسط الأمن في بولندا ، فتمكن بهذا التحالف العسكري مع روسيا أن يشعر باطمئنان في حالة إعلانه حرب على النمسا . وربما حتى على فرنسا فيما بعد . تزامنت هذه الاتفاقية مع اتفاق إنكلترا والنمسا وفرنسا على تقديم مذكرة مشتركة إلى روسيا تحضها فيها على منح عفو عام واستقلال داخلي في بولندا .

من جهة أخرى كان هناك ميل في غرب ألمانيا ، وحيثما التأم عقد الأحرار الألمان ، إلى العطف على شكاوى البولنديين ، سواء كانوا خاضعين إلى بطرسبرغ أم برلين ، والرغبة في رفع الجور عنهم . غير أن هذه العواطف الجميلة كانت مقيمة إلى قلب ذلك النبيل البروسي بسمارك الذي رأى أن العلاج الوحيد للمشكلة البولندية في بلاده هو تحويل البولنديين إلى بروسين بأقل تأخير مسٍطاع والقضاء على لغتهم قضاء تاماً وإزالة ثقافتهم القومية من الوجود ، ونبذ تقاليدهم ، ومقاومة المبادئ الحرة التي كانت تسعى إلى الإبقاء على بعض مظاهر الأمة البولندية ، وذلك باتهاب سياسة لا هوادة فيها لهيضها وتحويل أبنائها إلى بروسين . وكان بسمارك لا يقل عن الروس في عدم قدرته على احتمال أي تدخل في تنفيذ هذه الخطط . وقد قال للجنرال « فليري » Fleury سنة ١٨٦٣ : « إنني لأؤثر الموت على أن أسمح بطرح مركزنا في بولندا على بساط البحث أمام مؤتمر أوروي ، بل إنني لأؤثر على ذلك سلخ أراضي الرين نفسها » .

## الفصل الثالث

### محطات تاريخية لتحقيق الوحدة الألمانية

جاء بسمارك إلى الحكم وهو يحمل برنامجاً واسعاً يسعى لتحقيقه بطريقة مدرروسة . كان يرى أن هدف كل حكومة بروسية يجب أن يكون تحقيق الوحدة الألمانية إذ أنه كان يعتقد كما أشرنا أن زعامة بروسيا في ألمانيا تفرض عليها القيام بأعباء الوحدة . وإذا لم تقم بروسيا بذلك فإن هذا يعني أن الوحدة لن تتحقق . لقد استطاع بسمارك أن يحقق الوحدة ولكن بعد ثلاثة حروب خاضها ضد الدانمارك والنمسا وفرنسا .

#### أولاً - الحرب البروسية - الدانمركية :

كانت الدوقيات الثلاث - شلزويغ Sheclswig و هولشتاين Holstein واللانبورغ Lanbourg متحدين بالدانمرك بموجب معاهدات تعود إلى القرن الثامن عشر بصفة اتحاد شخصي أي أن ملك الدانمرك هو في الوقت نفسه ملك الدوقيات . ومع بروز مبدأ القوميات دُبَّ الصراع بين القوميتين الألمانية والدانمركية . لقد كان سكان دوقية هولشتاين من العرق الجermanي ويشكلون جزءاً من الاتحاد الجermanي ، بينما دوقية شلزويغ كانت مختلطة . الدانمكزيون في الشمال وهم أقلية

والألمان في الجنوب وهم الأكثريه .

ملك الدانمرک فردریک السادس ( ۱۸۰۸ - ۱۸۳۹ ) حاول ضم الدوقیات إلى مملکته ولكنه فشل بسبب معارضه المطالب بعرش الدوقیات وهو فردریک أوغشنبورغ الذي كان ينتظر انقضائه نسل الذکور في العائلة المالکة الدانمرکية ليحصل على عرش الدوقیات . بالمقابل كان الألمان في الدوقیات الثلاث بشکون من هیمنة الدانمرکيين ويطالبون بالانفصال . وانه مختلف الألمان على الشکل الذي يتحقق فيه هذا الانفصال . كان أكثرهم - وهذه النظریة يفضلها خاصه أستاذة جامعه کیل بين ۱۸۱۵ - ۱۸۳۰ - یدعمون نظریة عدم تقسیم الدوقیات ، أي أنهم كانوا يصرحون بأن شلزرویغ وهویشتاين تشكل كلاً واحداً ويجب أن يرتبط هذا الكل بأجمعه بالكونفدراسیون الجرمانی بما في ذلك شلزرویغ . وعلى العکس كان بعض المؤلفین الألمان أمثال لورنسن يصرّحون بلزوم تقسیم الدوقیات حسب مبدأ القومیات .

المشكلة تفاعلت عندما أعلن ملك الدانمرک في تموز ۱۸۴۶ ، بأن قانون الإرث المطبق في الدانمرک يجب أن يطبق في الدوقیات . وهذا يعني حرمان المطالب بعرش الدوقیات من تولي العرش لماذا ؟ لأن حسب القانون الجديد فإن شقيقة الملك شارلوت سوف تصبح هي ملکة الدانمرک والدوقیات بعد وفاة ابن الملك - الذي سوف يتسلم العرش عام ۱۸۴۸

باسم فرديك الرابع - والذي لم ينجـب ولـداً ذـكراً . بينما قـانون الإـرث المـطبـق في الدـوقـيات كان يـحـصـر حقـ الإـرث بالـذـكور فـقـط . وـبـنـاءـ عـلـىـ هـذـاـ القـانـونـ كانـ أوـغـسـتـبـورـغـ الـأـلـمـانـيـ يـنـتـظـرـ بـفـارـغـ الصـبـرـ انـقـضـاءـ نـسـلـ الذـكـورـ فـيـ العـائـلـةـ المـالـكـةـ الدـانـمـرـكـيـةـ حـتـىـ يـتـسـلـمـ هـوـ عـرـشـ الدـوقـياتـ .

أـمـامـ مـوجـةـ الـاحـتـجاجـ منـ قـبـلـ الـأـلـمـانـ ،ـ قـرـرـ الـمـلـكـ فـرـدـيـكـ السـابـعـ -ـ الـذـيـ خـلـفـ وـالـدـهـ كـرـيـسـتـيـانـ الثـامـنـ عـلـىـ عـرـشـ عـامـ ١٨٤٨ـ -ـ أـنـ يـضـمـ الدـوقـياتـ دـسـتـورـيـاًـ إـلـىـ الـدـانـمـرـكـ .ـ عـنـدـئـذـ قـرـرـ الـأـلـمـانـ الدـوقـياتـ تـشـكـيلـ حـكـومـةـ فـيـ مـدـيـنـةـ كـيـيلـ .ـ فـسـارـعـ الـجـيـشـ الـدـانـمـرـكـيـ إـلـىـ دـوـقـيـةـ شـلـزـوـيـغـ لـيـمـنـعـ الـأـلـمـانـ مـنـ السـيـطـرـةـ عـلـيـهـاـ فـطـلـبـتـ دـوـقـيـةـ هـوـلـشـتـاـينـ الـمـسـاـعـدـةـ مـنـ الـاـتـحـادـ الـجـرـمـانـيـ الـتـيـ هـيـ عـضـوـ فـيـهـ .ـ فـأـدـىـ ذـكـرـ ذـكـرـ إـلـىـ اـنـدـلـاعـ الـحـرـبـ بـيـنـ الـدـانـمـارـكـ مـنـ جـهـةـ وـيـرـوـسـيـاـ وـالـنـمـسـاـ مـنـ جـهـةـ ثـانـيـةـ .ـ فـسـارـعـتـ الـدـوـلـ الـكـبـرـيـ لـلـتـدـخـلـ فـاجـتـمـعـواـ فـيـ لـنـدـنـ ١٨٥٢ـ وـاتـفـقـواـ عـلـىـ مـاـ يـلـيـ :

- ١ - إـلـغـاءـ ضـمـ الدـوقـياتـ دـسـتـورـيـاًـ عـلـىـ الـاـتـحـادـ الشـخـصـيـ .
- ٢ - بـعـدـ وـفـةـ الـمـلـكـ فـرـدـيـكـ السـابـعـ يـنـقـلـ عـرـشـ إـلـىـ الـأـمـيـرـ كـرـيـسـتـيـانـ غـلـوـكـسـبـورـغـ بـدـلـاًـ مـنـ شـارـلـوـتـ .
- ٣ - تـنـازـلـ الـأـمـيـرـ فـرـدـيـكـ أوـغـسـتـبـورـغـ عـنـ حـقـوقـهـ فـيـ عـرـشـ الدـوقـياتـ مـقـابـلـ تـعـوـيـضـ مـالـيـ .
- ٤ - تـطـبـيقـ مـبـدـأـ الـمـسـاـواـةـ بـيـنـ الـأـلـمـانـ وـالـدـانـمـرـكـيـنـ .

بعد مؤتمر لندن نقضت الدانمرك تعهّداتها ، خاصة ما جاء في البند الثالث من معاهدة لندن ، فاحتاجت بروسيا والنمسا على تصرفات الملك الدانمركي . وكذلك فعلت الحكومة البريطانية الموقعة على معاهدة لندن ، عندما أرسلت مذكرة إلى الدانمرك تذكرها بتعهّداتها في المساواة بين الألمان والدانمرك .

الملك الدانمركي لم يصغ إلى الاحتجاجات ، بل ردّ عليها بإصدار دستور عام ١٨٦٣ ، نصّ على ضم دوقية شلزويغ إلى الدانمرك . وهذا يعني فصل هولشتاين عن شلزويغ . هذا التصرف كان خروجاً على معاهدة لندن ، مما أثار الشعور القومي الألماني ، فطلبت دوقية هولشتاين من الاتحاد الألماني التدخل لتخليص شلزويغ من السيطرة الدانمركية . فهددت بروسيا الدانمرك باللجوء إلى القوة إذا لم تُعد الأمور إلى نصابها .

في هذا الوقت توفي الملك فرديريك السابع وتولى العرش أمير غلوكسبورغ . عندئذٍ أُعلن الأمير أوغستينبورغ الألماني - الذي تنازل عن حقوقه في الدوقيات الثلاث بموجب معاهدة لندن - أُعلن نفسه دوّقاً على الدوقيات ، بحجّة أنّ ملك الدانمرك خرق معاهدة لندن .

ووجدت الحكومة البروسية الفرصة مناسبة للتدخل من أجل تحقيق الوحدة الألمانية التي كان بسمارك يسعى وراءها ،

فانحاز الأخير إلى أمير أوغستبورغ ، وهذا يتمشى مع رغبات كل مناضلي الحركة القومية الألمانية ، بينما لا تستطيع النمسا أن تطالب بحقوق الألمان القومية وهي الإمبراطورية التي تضم قوميات مختلفة . لذلك ومن أجل أن لا تترك الساحة لبسمارك ، وجدت نفسها منساقة إلى جانب بسمارك من أجل أن تحافظ على نفوذها لدى الألمان . هذا اللقاء الفعلي نشأ لفترة من الزمن بين خصمين . فقد وجه بسمارك بالاتفاق مع النمسا إنذاراً إلى ملك الدانمارك يطالبه بإلغاء دستور<sup>٣</sup> ، ١٨٦٣ ، وعندما رفض الملك الدانمركي الإنذار ، دخلت الجيوش البروسية والنمساوية الدوقيات في شباط ١٨٦٤ ، مما أدى بملك الدانمرك لطلب المساعدة من الدول الموقعة على معاهدة لندن .

١ - بريطانيا : كانت في موقف حرج . في البداية صرحت بأنها غير مستعدة للتدخل في هذا النزاع لأن الملك الدانمركي لم يحترم تعهاته التي قطعها عام ١٨٥٢ . هذا الموقف يعكس رأي الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا التي كانت بصورة مستمرة تعطف على الألمان لأن زوجها كان أميراً ألمانياً . كما وأن الشعب البريطاني كان يريد السلام والابتعاد عن الحرب التي تفرض على المواطن الإنكليزي أعباء جديدة .

هذا من جهة ، أما من جهة ثانية كانت بريطانيا تنظر

يقلق إلى التوسع الألماني . خاصة وأن الألمان كانوا يفكرون في شق قناة تصل بين البلطيق وبحر الشمال . وتلك القناة تقع في مدينة كييل التي بدورها تقع ضمن الدوقيتين اللتين احتلتهما ألمانيا والنمسا . وشق قناة كييل سوف يؤدي إلى تسهيل انتقال البحرية الألمانية من البلطيق إلى بحر الشمال مما يهدد الأسطول البريطاني ، صحيح أن قوة بروسيا البحرية في ذلك الوقت لم يكن يحسب لها حساب ، ولكن بريطانيا كانت تنظر إلى المستقبل بعيد خاصة وأن قناة كييل لن تفتح قبل عام 1895 . كذلك كانت بريطانيا تريد المحافظة على الدانمارك وقدرتها البحرية لتسلم مفتاح بحر البلطيق و تستطيع أن تقف بوجه بروسيا . ومن أجل ذلك سعت بريطانيا لدى فرنسا طلباً للتدخل العسكري ووضع حد للحرب .

٢ - فرنسا : أما الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث فإنه لم يوافق على الاقتراح البريطاني بإرسال جيشه البري إلى جبهة الرين مقابل إرسال الأسطول الإنجليزي إلى جبهة البلطيق . لقد رأى نابليون بأن الاقتراح البريطاني ما هو إلا حرب جديدة بين بروسيا وفرنسا والتدخل البريطاني لن يكون متساوياً مع التدخل الفرنسي ، إذ أن الأسطول البريطاني لن يشترك في الحرب ضد بروسيا بسبب عدم وجود قوة بحرية بروسية ، بل لبروسيا قوة برية قوية . من جهة أخرى كان لنابليون وجهة نظر بالنسبة لقضية الدوقيات تختلف عن وجهة نظر بريطانيا ، لذلك لم يصفع نابليون إلى الاقتراح البريطاني

بل تقرب من بسمارك واستعرض معه إمكانية توحيد ألمانيا بقيادة بروسيا . لقد صرخ الأمبراطور في ١٣ نisan ١٨٦٤ بقوله : « نحن الفرنسيون لا نستطيع أن نساند قضية القوميات في البندقية ونكافحها في الدوقيات » .

لقد كان نابليون يريد إضعاف النمسا من أجل الحصول على البندقية لتحقيق الوحدة الإيطالية . وكان من جهة أخرى يرى بأن يكون القسم الشمالي من الشلزرويج تابعاً للدانمرك لأنه مأهول بالدانمكين ، وأن تنضم بقية الدوقيات إلى الاتحاد الجermanي .

٣ - موقف روسيا : كان لروسيا وجهة نظر : من جهة تريد روسيا إضعاف بريطانيا والحد من الهيمنة البريطانية على البحار ، لذلك رأت بأن احتلال بروسيا للدوقيتين وشق قناة كييل سوف يؤدي إلى تطور البحرية الألمانية بسرعة من أجل منافسة بريطانيا وهذا لا يلحق الضرر بروسيا .

من جهة أخرى كانت روسيا ترى بأن التوسيع الألماني ربما أدى إلى احتلال أراضي الدانمرك بكمالها مما يؤدي إلى انهيار الدانمرك ، فتسارع عندئذ السويد وتحتل ما تبقى من جزر تابعة للدانمرك . وبما أن السويد عدوة لروسيا فإن هذا سوف يؤدي إلى احتلال منافذ بحر البلطيق .

أمام هذا الموقف الدولي سارعت بريطانيا ودعت لعقد

مؤتمر دولي على غرار مؤتمر ١٨٥٢ ، ووافقت روسيا وفرنسا على الطلب البريطاني مما أدى إلى موافقة بروسيا والنمسا . فعقد المؤتمر في ٢٥ نيسان عام ١٨٦٤ في لندن . بروسيا اقترحت استقلال الدوقيتين تحت عرش فرديريك أوغستبورغ . بينما فرنسا وبريطانيا اقترحتا تقسيم الدوقيات ، بمعنى أن يكون القسم الشمالي من شلزويغ تابعاً للدانمرك والقسم الجنوبي بالإضافة إلى دوقية هولشتاين يحصل على الاستقلال . والسؤال المطروح : كيف يحدد خط التقسيم ؟ اقترحت فرنسا إجراء استفتاء للسكان للاطلاع على رغباتهم . ولكن الدانمرك رفضت الاستفتاء مما أدى إلى استئناف القتال وهزيمة الدانمرك التي أجبرت على توقيع معاهدة فيينا في ٣٠ تشرين الأول ١٨٦٤ ، و بموجب هذه المعاهدة أقر أولاً : تخلي الدانمرك عن جميع حقوقها في الدوقيات مع السماح للدانمركيين الموجودين في شمال شلزويغ بحق الاختيار بين البقاء أو الانتقال إلى الدانمرك . ثانياً : اتفاق النمسا وبروسيا على حكم الدوقيتين حكماً مشتركاً بصورة مؤقتة .

### ثانياً : العرب البروسية النمساوية :

ظهر لبسمارك أن مشكلة الدوقيتين لن تحل إلا عن طريق الحرب ولما كان هو ينتظر هذه الفرصة لعلمه أنها لن تحل فقط المشكلة القائمة بل ستحل أيضاً مشكلة مستقبل الوحدة الألمانية من أساسها . وذلك لثقة بسمارك بقوة جيشه وبقدراته على القضاء على فعالية الجيش النمساوي .

أدرك الجميع في أوروبا أن الحرب واقعة لا محالة ولذ  
أخذوا يستعدون لها . وقد اجتمع في آخر شباط سنة ١٨٦٦  
مجلس الوزراء الألماني لبحث قضية الحرب وإمكانية الفوز  
فيها . وقد عرض الجنرال ( فون مولتكه ) القائد الأعلى  
للجيش رأيه بالموضوع فقال : إن بروسيا لا يمكنها وحدها أن  
تتصر على النمسا . وإذا شاءت الانتصار فعليها أن تحالف  
مع إيطاليا لأن وقوف إيطاليا إلى جانب بروسيا سوف يشغل  
ثلث القوى النمساوية مما يجعل إمكانية انتصار البروسين كبيرة  
جداً .

ومنذ ذلك اليوم ، بدأ بسمارك يوجه جهوده نحو إيطاليا لكي يتحالف معها . وقد أخذ من جهة ثانية يعمل على إثارة المشاكل بوجه النمسا لكي يجعلها تثور وتعلن الحرب ، مما يجعل بروسيا لا تظهر أمام الدول الأوروبية بمظهر الدولة المعتدية .

وكان أول ما فعله في هذا المضمار أن قدم اقتراحًا للمجلس الاتحادي (Diète) بأن تكون وفود الدول مثلة لشعوبها لا لحكوماتها (يجب أن يلاحظ أن ذلك يعارض إلى حد كبير معتقدات بسمارك).

والغاية الحقيقة التي كان يهدف إليها بسمارك هي إظهار  
بروسيا أمام الألمان والرأي العام الأوروبي بمظهر المدافع عن  
حرية الشعوب وإظهار النمسا من جهة ثانية بمظهر الدولة

## الرجعية المعادية لتحرر الشعوب وللديمقراطية .

وقد صدق بسمارك في ظنه إذ ما إن عرضاقتراح الجديد حتى عارضتها النمسا بقوة وشدة مما أضعف موقفها إلى حد كبير في المجلس وجعلها تفكر جدياً في الحرب مع بروسيا وهذا ما كان يسعى إليه بسمارك . وقبل أن تدخل في تفاصيل الحرب لا بد لنا من إلقاء نظرة على موقف دول أوروبا من هذه الحرب .

١ - إنكلترا : لقد كان موقف بريطانيا من القضية موقف المتفرج إلى حد كبير ذلك أنه لم يكن لها مصالح مهمة في أوروبا الوسطى . هذا كان موقفها من القضية بصورة عامة ولكن كان يهمها من ناحية ثانية أن لا تقوى دولة على أخرى بحيث يختل التوازن في أوروبا الوسطى .

وعلى كل حال فإن معارضه إنكلترا هذه لا تتجاوز المعارضه الدبلوماسية إذ أنها لم تكن على استعداد إطلاقاً للتدخل المسلح لتحقيق ما تريد وللحؤول دون ما لا تريد .

٢ - إيطاليا : كان لإيطاليا مصالح حقيقية في أوروبا الوسطى . ولكن لا يهمها إلى حد كبير التدخل في شؤون هذه المنطقة وإن كانت لا تمانع ضمناً في قيام دولة ألمانية على حدود النمسا تهددها دوماً وتقلل من استبدادها وغطرستها . ولكن من ناحية ثانية ، لإيطاليا قضية معلقة مع النمسا وهي قضية البوسنة . فيإيطاليا على استعداد دوماً للمساومة ولل الحرب

أيضاً في سبيل الحصول عليها . ولذا فقد ترکز موقف إيطاليا على أساس أن هذه مستعدة للوقوف إلى جانب بروسيا ومحاربة النمسا إذا كان في ذلك ضمان للحصول على البندقية .

٣ - روسيا : منذ أن تسلم بسمارك زمام السلطة في بروسيا بني سياسته الخارجية على أساس قيام محور روسيا - بروسيا إذ أنه اعتبر روسيا دائماً حليفته الطبيعية وذلك لأسباب مهمة جداً . إذ أن روسيا ليس لها أي مطامع في أوروبا الوسطى تتنافى ومصالح بروسيا ؛ فالمصالح الروسية موجودة في البلقان والشرق حيث ليس لبروسيا أية مطامع . هذا الواقع جعل قيام صداقه بروسية - روسية أمراً طبيعياً بعد أن اتضحت عدم تعارض المصالح . وعلى هذا الأساس تعاونت الدولتان في أوروبا طالما أن بسمارك كان يحكم بروسيا . وعندما عرضت قضية الحرب النمساوية البروسية ، وجدت روسيا نفسها مسوقة لتأييد بروسيا .

٤ - فرنسا : لقد كان نابليون الثالث شديد العطف على كل حركة قومية حتى ولو كانت ألمانية . ولكن عطفه هذا كان يحول دون ظهوره مصلحة فرنسا . إذ أنه كان واضحاً بجلاء أن قيام دولة ألمانية موحدة على حدود فرنسا لن يكون في مصلحة هذه الأخيرة . ولذلك كانت فرنسا ترى كحل إمكانية قيام ثلاثة اتحادات في ألمانيا : اتحاد الدول الواقعة شمالي ألمانيا . واتحاد الدول الواقعة جنوبي المانيا . واتحاد ثالث يشمل

الأراضي التابعة للنمسا ومناطق السوديت . وإذا كانت بروسيا تقبل بهذه الشروط ، فإن فرنسا كانت على استعداد لتأييدها خصوصاً إذا ما تحالفت مع إيطاليا وتعهدت لها بتحرير البندقية . وعلى كل فإن فرنسا ليست مستعدة للاشتراك عملياً في المعركة مهما كانت الظروف والأسباب ولذا فإن موقفها يتسم بالحياد بصورة عامة .

### المفاوضات :

بناء على رغبة فرنسا وعلى نصيحة العسكريين البروسيين بدأت مفاوضات دبلوماسية بين إيطاليا وبروسيا . وبعد تردد طويل من جانب إيطاليا قبلت بالتحالف مع بروسيا بعد أن نصحها بذلك نابليون وبعد أن وعدها بحمايته . وهكذا وقعت معاهدتا تحالف بين بروسيا وإيطاليا في 8 نيسان سنة 1866 لمدة ثلاثة أشهر فقط .

وبعد أن تمت هذه المفاوضات الدبلوماسية ، وجد بسمارك أن الوقت قصير أمامه مما يضطره لخوض الحرب قبل نهاية الثلاثة أشهر ولذا أخذ يحشد جيوشها سراً على حدود النمسا ؛ فعلمت هذه بذلك وحشست جيوشها عليناً مما أثار عليها الرأي العام وأظهرها بمظهر الدولة المعتدية وهذا ما كان يريده بسمارك وخصوصاً بعد أن طلبت إلى المسرحين العودة إلى السلاح . وقبل بداية الحرب حاولت النمسا استرضاء الدول الألمانية بأن عرضت ترك أمر الدوقيتين لها . ولكن بسمارك

رأى في ذلك خرقاً لاتفاقية غشتاين الموقعة بين النمسا وبروسيا والقاضية بضم شلزويغ لبروسيا وهولشتاين للنمسا . وبدأت نذر الحرب وعندها اجتمع مجلس ( الدايات ) وصوتت أكثريه الدول الالمانية إلى جانب النمسا وخاصة الدوليات الكبرى : بافاريا ووارتمبرغ والهانوفر والساكس .

### بداية الحرب :

وفي ليل ١٤ - ١٥ حزيران ١٨٦٦ بدأت المعارك بين بروسيا والنمسا بعد أن أعلن وفد بروسيا اعتباره الاتحاد لاغياً وانسحب من المجلس . وعندما بدأت الحرب أرسلت النمسا جيشاً مؤلفاً من ٢٣٠ ألفاً لمقابلة الجيوش البروسية وأرسلت جيشاً مؤلفاً من ١٤٠ ألفاً ليرابط في الجنوب بانتظار الجيوش الإيطالية . وفي ٣ تموز وقعت بين الجيشين البروسي والنمساوي معركة فاضلة تدعى معركة سادوا Sadowa سحق فيها الجيش النمساوي على يد بروسيا . وقد تم النصر قبل أن تتمكن الدول الالمانية المحالفه للنمسا من مساعدتها . وفي نفس الوقت كان الإيطاليون قد بدأوا زحفهم من الجنوب فوقعت بينهم وبين النمسا معركة كوستوزا التي هزم فيها الإيطاليون رغم تفوقهم في العدد . وقد كان لمعركة سادوا دوي هائل في أوروبا لأنها أثبتت في نظر الأوروبيين عظمة الجيش البروسي وحسن تنظيمه وتدريبه كما أثبتت أن البروسيا قد أصبحت دولة كبيرة يجب أن يحسب لها حساب في ميزان القوى في أوروبا . وقد كان أثر هذه المعركة أقوى مما يكون في

فرنسا ، فقد أدرك الجميع أن النصر البروسي تهديد مباشر للسلامة الفرنسية وأن الموقف الذي اتخذه حكومة الإمبراطورية الفرنسية قبل الحرب والذي اتسم بالحياد إن لم يكن بالتأييد الفعلي لموقف بروسيا كان بمثابة خطأ شنيع . وعلى هذا الأساس وجدت فرنسا نفسها مجبرة على القيام بدور الوسيط بين الطرفين وقد قامت بدور الوساطة هذا بناء لطلب النمسا . وبصورة خاصة لكي تمنع بروسيا من قطف ثمار انتصارها العسكري بشكل كامل .

قبلت بروسيا ذلك على مضض ولكن ليكون لهذه الوساطة فعاليتها كان يجب أن تقرن بعمل أو باستعداد عسكري كما كان يريد وزير خارجية فرنسا ، وخوف نابليون وتردد وعجزه كل ذلك جعل الوساطة سلمية مما أفسدتها وجعلها عديمة الجدوى والفعالية

وأخيراً تم الاتفاق في مجلس الوزراء الفرنسي على عرض الشروط التالية :

- ١ - المحافظة على الأراضي النمساوية عدا اليندقية .
- ٢ - حل الاتحاد германي الذي كانت تتمسك به النمسا .
- ٣ - الاعتراف لبروسيا بحق إنشاء اتحاد شمال الراين .
- ٤ - الدول الواقعة جنوبى النهر تشكل اتحاد تحت النفوذ الفرنسي .
- ٥ - إعطاء الدوقتين لبروسيا .

وقد قبل بسمارك بهذه الشروط لأنه كان لا يريد إذلال النمسا بينما كان الملك والعسكريون يودون تحقيق الاتحاد والتوسيع على حساب المناطق النمساوية . ولكن بسمارك تمكن من إقناعهم . ذلك أن سياسة بسمارك كانت تهدف لتحقيق الوحدة الألمانية وليس إذلال النمسا والقضاء عليها . وأخيراً تم الصلح على هذا الأساس سنة 1867 بين النمسا وبروسيا .

وفي ۱۲ آب عقدت إيطاليا معاهدة الصلح مع النمسا، على أساس أن تتنازل هذه لفرنسا عن البندقية وتهديدها بدورها إيطاليا.

وبموجب هذه المعاهدات تكون ألمانيا قد خلطت خطوات واسعة نحو الاتحاد . إذ أن ألمانيا أصبحت مقسمة إلى ثلاثة مناطق . اتحاد الماين وتترعى به بروسيا ، اتحاد جنويي الماين حيث للنفوذ الفرنسي أثر لا بأس به . وأخيراً قسم تسيطر عليه النمسا . وهكذا تمكن بسمارك من أن يقهر النمسا و يجعل مقاومتها للوحدة غير ذات أثر كما أنه سار شوطاً بعيداً في طريق الوحدة بآن أزال الاتحاد герماني من عالم الوجود .

## تأثير انتصار بسمارك على فرنسا :

شعر الفرنسيون منذ أيام معركة سادوا بأن بلادهم لم تكتب من وراء الحربين اللتين شنتهما بروسيا ضد الدنمارك

والنمسا . وكان لهذه التبيحة السلبية أثر كبير على كل المستويات إذ وجهت للأمبراطور نابليون انتقادات عنيفة في البرلمان الفرنسي فقد حكم على فرنسا ، وأحساس الغيظ والحسد والقلق تغمرها ، أن تشهد انتصار بروسيا المدوي : هذا الانتصار الذي مكنتها من ابتلاع هانوفر وهن كاسل والدوقيتين الدانمركيتين ، ومن السيطرة فوق ألمانيا حتى نهر الماين ، ومن إضافة أربعة ملايين وربع مليون من الأنفس إلى سكانها ، ومن قلب التوازن الدولي بأكمله في وسط أوروبا ، على حين أن الأمبراطور الفرنسي لم يحرك مدفعاً واحداً أو عسكرياً واحداً لنيل مزاياها معوضة لمملكته . وقد أعرب المارشال راندون Randon عن شعور الخيبة الذي تملك فرنسا يومئذ بقوله : « إن فرنسا هي التي هزمت في سادوا ». وكانت هزيمتها هزيمة عجذت الدبلوماسية الفرنسية عن مداواتها . فقد كانت ضربة بسمارك أسرع مما توقع الناس ، وجاء يبحث الفرنسيين وراء الأسلاب متأخراً أكثر مما يجب .

وطالب الأمبراطور في الفترة التي توسطت موقعة سادوا ونشوب الحرب الفرنسية البروسية بكل صنف من صنوف الترضيات : كان يعطي ( بالأثينات الرين ) وهن ، أو السارومينز ، أو البلجيك ، أو لكسمبرغ . ولكن هذه الالتماسات التي لم تسندها القوة رفضت بلا مجاملة . غير أن بسمارك احتفظ بالدلائل التي تشير بتقدم الأمبراطور له بها ، واستخدمها ضده في الوقت المناسب - الأمر الذي كان له أثر

حاسِم في جعل الدبلوماسية الفرنسية تبدو كريهة مموجة في  
نظر بافاريا وإنكلترا .

### ثالثاً - الدستور الألماني الجديد :

منح بسمارك الاتحاد الألماني دستوراً . ومع أن هذا الدستور لم يحو غير قليل من المبادىء الحرة الإنكليزية ، إلا أنه كان متيناً قوياً ، بحيث احتمل العواصف والأنواء التي هبت عليه خلال اثنين وخمسين عاماً ( ١٨٦٦ - ١٩١٨ ) . ويمقتضى هذا الدستور ، أنشئ مجلس نواب سمي بالريشتاغ .

وكان هذا المجلس ينتخب بالاقتراع العام ، ولذا قام على أنس أكثُر ديمقراطية مما كان يقوم عليها البرلمان الإنكليزي حتى سنة ١٩١٨ . ولكن طبقاً للمبادئ البسماركية ، لم يكن في مقدور الريشتاغ تأليف الوزارات أو إسقاطها ، أو الهيئة على أموال الدولة أو القوات الحربية ، كما فعل البرلمان الإنكليزي عن طريق إجازته كل عام مشروع قانون الجيش وضرورة تصديقه على الأموال التي تنفق عليه . ولهذا لم يخُول هذا المجلس الديمقراطي حق السيادة في الدولة . وكانت الهيئة الحاكمة الحقيقة للاتحاد هي المجلس التعااهدي *Bundesrat* . وكان يتألف في ذلك الحين من اثنين وأربعين مندوبياً يمثلون حكومات ولايات الاتحاد الشمالي المختلفة . وكان هذا المجلس يتداول في هيئة سرية ، تحت

رئاسة مستشار الاتحاد ، الذي كان في نفس الوقت كبير وزراء بروسيا . وقد خال الكثيرون من النقاد البروسيين مجلساً كهذا مربكاً مغطلاً للأمور بلا ضرورة . فكانوا يتساءلون : لماذا تعطى بروسيا عشرين أسرة مالكة صغيرة حق التمثيل في الهيئة الحاكمة العليا للدولة الجديدة؟ أو لم تكن الأنظمة المركزية أبسط وأفضل؟ فقد كان في مقدور بروسيا أن تزيل هذه الأنماض الدارسة من بقايا الماضي . فقد أنزلت ملك هانوفر عن عرشه وأنهت حكم بيته . فلماذا تعنى الآن عناء بالغة بالإبقاء على عدد من الولايات المنفصلة وتخويفها سلطة سياسية قد تستخدمنها في التعطيل والتأخير؟ بل أنها سمحت لسكسونيا أحد أعضاء الاتحاد الشمالي ، بأن تمثل في بلاط الملوك الأجانب بوزراء مفوضين مستقلين عن ممثلي الاتحاد .  
بيد أنه ليس ثمة ريب في أن بسمارك كان حكيمًا في مقاومة الغواية بأن يجعل ألمانيا الجديدة دولة موحدة . فقد كانت البيوت المالكة في الولايات المتحدة الألمانية المختلفة متأصلة الجذور في تربة التاريخ الألماني . وكانت تستطيع المساهمة بنصيب في أعمال الدولة . فلم يكن بسمارك ليكسب من وراء إزالتها غير خلق الصعوبات غير الضرورية في الشمال ، وغرس شعور مقت عنيف في نفوس الشعوب الألمانية الجنوبية لأية فكرة ترمي إلى إيجاد اتحاد أوثق عرى بينها وبين الولايات الشمالية .

أضف إلى ذلك أنه لم يكن هناك أي خطر من قيام

حكومة قوية ذات كفاية ومقدرة في داخل البناء الاتحادي . فقد كان لبروسيا أغلبية مأمونة في (الbindsراط) . وكانت بروسيا هي بسمارك . فإنه بمقتضى أحکام الدستور الفذ الذي وضعه بسمارك ، كان مستشار الريخ الألماني مسؤولاً أمام ملك بروسيا وحده . ولم يكن هناك وزارة لاتحاد الألماني تعوق أعماله ، بل كان هو الرئيس الفعلي لجميع إدارات الحكومة وفروعها . ولم يكن البندسراط أو الريشتاغ ، أو برلمان بروسيا ليبطئ أن يقيله من منصبه ، أو يتحدى بدرجة فعالة إرادته ، بل كانت شخصية الوزير الأول الجباره الهائلة تسيطر عاماً بعد عام على الموقف ، وتملاً أرجاء أوروبا طولاً وعرضأً بوعود خطبه القوية المدوية ، وتلقى علىبني جلدته دروساً جديدة في فن حكم الجنس البشري .

ولهذا كانت الفوارق عظيمة بين النظم التي ابتدعتها كل من الدولتين القوميتين : إيطاليا وألمانيا ، هاتين الدولتين اللتين تدينان بكيانهما لكافور وبسمارك . ففي إيطاليا صحب انتصار القومية إنشاء نظم برلمانية على الطراز الإنكليزي . أما في ألمانيا فقد هزمت سيادة البرلمان على الحكومة هزيمة فاصلة . ولكن رغم أن النظام الحكومي الألماني وضع بحيث يضمن للأوتوقراطية البروسية الكلمة العليا ، فإنه حرمتها من فوائد الدرس والعظات التي تنبه ساسة الدول البرلمانية وتقوم أخطاءهم . فإنه في فترات منتظمة كانت تيارات الانتخابات العامة المطهرة تطغى على الريشتاغ ، وتمكن شيئاً جديدة

من الرأي العام من التأثير في حياة البلاد السياسية . ولم تكن هذه التيارات تأتي وفق رغائب بسمارك على الدوام ، فإنه بينما استخدم الأحرار الوطنيون كل فن من أفنان الدعاية الشعبية للحضور على الوحدة الألمانية ، وتأييد النظم الجديدة للدولة ، عملت الأحزاب الكاثوليكية والاشراكية على تحدي بسمارك ومقاومته .

#### رابعاً - الحرب البروسية الفرنسية :

الحرب البروسية الفرنسية هي الفصل الأخير من فصول الوحدة الألمانية . وقد رأينا منذ البداية أن فرنسا كانت تخاف الوحدة الألمانية إلى حد كبير أنها ترى وجود دولة ألمانية على حدودها الشمالية يهدد سلامة الأراضي الفرنسية . وقد كان بسمارك يدرك هذه الحقيقة فوضع خطته على أساس قهر النمسا أولاً ثم فرنسا ثانياً كمقدمة للوحدة الألمانية . وقد جاء تدخل نابليون في الحرب بينه وبين النمسا يزيد بسمارك اقتناعاً بأن فرنسا لم تتدخل إلا لتأخير الوحدة وعرقلتها . ولذا فإنه ما أن انتهى من الصراع مع النمسا حتى أخذ يستعد لمواجهة فرنسا ولكنه من جهة أخرى كان يهمه أن تكون فرنسا هي المعتدية في كل حرب مع ألمانيا . وقد ظل بسمارك يسعى لذلك حتى تهيأت له الفرصة سنة 1870 .

#### العلاقات الفرنسية الألمانية حتى سنة 1870 :

بعد انتهاء الحرب بين النمسا وبروسيا شعر نابليون

الثالث بأن الفرصة قد فاته إذ كان بإمكانه أن يفرض ما يشاء من مكاسب لمصلحة فرنسا حين قام بوساطته بين الدولتين . أراد أن يعرض عما فاته فأخذ يطالب بروسيا ببعض التعويضات الإقليمية . طلب أولاً بعض الأراضي الألمانية على الرابن . ولكن بسمارك رفض ذلك يحجة أنه لا يملك حق التصرف في الأراضي الألمانية ثم عاد نابليون وطالب بلجيكا واللوكمبورغ . فقبل بسمارك مبدئياً ولكن اطلع إنكلترا من طرف خفي على نوايا نابليون مما أخرج موقف فرنسا ثم عاد نابليون وطالب للمرة الثالثة باللوكمبورغ فقط ولكن بسمارك رفض ذلك أيضاً فلجأت فرنسا إلى احتلال اللوكسمبورغ مما جعل الوضع يتآزم في أوروبا . عند ذلك عقد مؤتمر في لندن سنة 1867 تقرر في أثنائه أن تكون هذه الدولة منطقة حياد بين بروسيا وفرنسا .

وهكذا يفشل نابليون الثالث في جميع المحاولات التي قام بها للحصول على بعض المكاسب في أوروبا ، مما جعله يحقد على بروسيا ويصمم على محاربتها .

ومما زاد في تآزم الأوضاع ، أن بسمارك لم يكتف بما حققه من مكاسب عقب الحرب النمساوية البروسية . بل عقد في سنة 1867 معاهدات تحالف بين اتحاد ألمانيا الشمالية وبين بعض دوليات ألمانيا الجنوبية ، وفي ذلك دليل على

تصميم بسمارك على تحقيق الوحدة الألمانية رغم معارضة فرنسا لذلك .

وهكذا أخذ يتضح شيئاً فشيئاً أن الحرب بين بروسيا وفرنسا واقعة لا محالة إذ أن بسمارك لن يتراجع عن تحقيق الوحدة وفرنسا لن تسمح بذلك إطلاقاً . ومما زاد في حرارة الموقف أن السياسة الداخلية التي كان يتبعها نابليون الثالث أثبتت فشلها إلى حد كبير مما جعله يفتش عن انتصارات عسكرية أو سياسية يقوى بها أركان حكمه المترجح . ويشغل الفرنسيين عن الاهتمام بمشاكل كل فرنسا الداخلية وأوضاعها المتردية اقتصادياً ومالياً واجتماعياً .

الموقف الدولي حتى سنة ١٨٧٠ :

منذ أن شعر الفريقان في عام ١٨٦٧ ، أن الحرب واقعة لا محالة أخذ كل منهما يعمل على تهيئة وضع ملائم له في أوروبا . ففرنسا أخذت تفتش عن حلفاء لها ضد بروسيا وذلك لعلمها بأن الجيش البروسي قوي وربما عجزت عن قهره لوحدها . أما بروسيا فكانت واثقة من قوة جيشه وقدرته على سحق فرنسا . فإنها أخذت تسعى لعرفة الجهد الفرنسية في أوروبا ولضمان حياد دولها الكبرى . وهنا سنعرض باختصار موقف كل من هذه الدول .

١ - النمسا : في سنة ١٨٦٧ تبدل وجه النمسا بعد أن

تحالفت مع المجر وأصبحت تدعى إمبراطورية النمسا المجر . وهذا يعني أن النمسا لم تعد وحدها تقرر سياسة الدولة ومصيرها بل يشاركها في ذلك المجربون .

ثم ان النمسا بعد هزيمتها أمام بروسيا سنة ١٨٦٦ غيرت أسس سياستها وجعلت اهتمامها ينحصر في الشؤون البلقانية وشئون المتوسط وبذا أصبح خصمها الرئيسي روسيا وليس بروسيا . وعلى هذا الأساس وجدت فرنسا أنه لا يمكنها الاعتماد إلى حد كبير على النمسا التي لم تعد تهتم بالشئون الألمانية . ورغم العروض الكثيرة والمتكررة ورغم الأمانة السخية التي عرضها نابليون الثالث على النمسا مقابل عقد تحالف مع فرنسا ضد بسمارك ، فإن نابليون لم يحصل على أي نتيجة إيجابية من قبل حكومة النمسا .

٢ - روسيا : لم يكن روسيا تشعر بأي خطر من جراء قيام الوحدة الألمانية بل بالعكس كانت روسيا على استعداد دوماً لتأييد بسمارك ذلك أن روسيا كانت دوماً تهتم بقضايا منطقة البلقان من جهة ومراقبة الوضع في بولونيا من جهة أخرى مخافة بجدد الثورة التي قامت سنة ١٨٦٣ . وكانت روسيا تحرص على صداقه بروسيا لبقاء استقرار الوضع في بولونيا .

٣ - بريطانيا : كان الحكم في ذلك الوقت في إنكلترا بيد الأحرار الذين كانوا منصريين إلى معالجة شئون الإمبراطورية الداخلية : أميركا ، كندا ، الحدود الهندية -

الروسية ، الشؤون الانتخابية ، كل هذا صرف إنكلترا عما يجري في أوروبا ولكنها رغم ذلك ظلت تتمسك إلى حد كبير ببقاء التوازن الدولي في أوروبا على حاله . ولهذه الأسباب لم يحصل أي تحالف بين إنكلترا وفرنسا .

٤ - إيطاليا : عندما فشل نابليون بالتحالف مع الامبراطور فرنسا جوزيف التفت إلى ملك إيطاليا فيكتور عمانوئيل ليشركه في المفاوضات الدائرة بين فرنسا والنمسا لعله يستطيع هذه المرة أن يصيب تجاحاً . وبالفعل استطاع نابليون أن يتوصل عام ١٨٦٩ إلى وضع مشروع معاهدة بينه وبين النمسا وإيطاليا تضمن كل دولة سلامة الدولة الأخرى . ولكن الاتفاق لم يتم بصورة النهاية : بسبب الموقف الإيطالي الذي طلب من نابليون سحب حامياته من روما . ولكن نابليون رفض الطلب الإيطالي لأنه كان يخشى إثارة الرأي العام الكاثوليكي الفرنسي ضده ، مما أدى إلى انهيار الاتفاق الثلاثي واستعيض عن مشروع المعاهدة بتبادل رسائل بين الدول الثلاث ، أعربت فيها كل دولة عن رغبتها في تنسيق سياستها الخارجية مع الدول الأخرى ، وجرت مشاورات عسكرية بين الفرنسيين والنساويين ووعد الامبراطور النمساوي فرنسا جوزيف نابليون بمساعدته في الحرب شرط أن لا تكون فرنسا هي البادئة بإعلانها . ولكن فرنسا هي التي بدأت بإعلان الحرب .

وهكذا جاء عام ١٨٧٠ دون أن تحصل فرنسا على حليف قوي يساعدها في حربها بروسيا بينما كان بسمارك قد ضمن صداقته روسيا وحيد إنكلترا والنمسا . وعند ذلك بدأ يدفع فرنسا لكي تعلن الحرب ، ذلك أنه كان لا يريد أن يظهر في أوروبا بمظهر الرجل المعتدي .

### أسباب الحرب :

في سنة ١٨٦٨ طرأت مشكلة جديدة زادت في توتر العلاقات الفرنسية البروسية وأعني مشكلة العرش الأسباني ذلك أنه أثر صراع طويل بين الشعب الأسباني والأسرة المالكة فرت الملكة إيزابيلا من إسبانيا تاركة العرش الأسباني . فباتت مقدرات إسبانيا بيد رئيس وزرائها (بريم) Prim الذي صار عليه أن يحل مشكلة خليفة العرش . وقد رأى الجميع ضرورة استمرار الحكم الملكي ولذا بدأ البحث في أوروبا عن أمير لعرش إسبانيا . وقع الاختيار على الأمير ليوبولد من عائلة هوهنتزلن قريب قيصر بروسيا وشقيق ملك رومانيا وقد أعلنت فرنسا معارضتها لهذا الترشيح بصورة علنية فبقيت القضية دون حل حتى قدوم موعد خاص من قبل Prim لإقناع ليوبولد بالقبول إذ أنه كان زاهداً في هذا المنصب ولم تنجح مهمة هذا الموفد . وفي سنة ١٨٧٠ عرض الأمر مجدداً على الأمير الذي أحال الطلب إلى الملك البروسي . وقد تحمس بسمارك كثيراً لهذه القضية باعتبار أن وجود ملك على عرش مدريد من عائلة هوهنتزلن سيجعل من إسبانيا كمامشة . وإذا تصبح فرنسا أقل

معارضة لمصالح بروسيا ، ولكن الملك البروسي ظل متربداً لأنه كان يخاف من معارضة فرنسا القوية ومن إمكانية وقوف الرأي العام في أوروبا إلى جانبها ، وكذلك لبويد . إلا أن بسمارك بعد جهود جبارة تمكن من إقناع الملك والأمير . وأبلغ بسمارك قرار القبول في ٢١ حزيران سنة ١٨٧٠ إلى الجنرال الأسباني .

ما إن علمت فرنسا بالأمر حتى أعلنت معارضتها الشديدة له وكلفت سفيره في برلين بأن يقابل الملك الذي كان يقضي الصيف في Ems ويطلب منه التدخل لسحب الترشيح . وقد تمكن من إقناع الملك الذي كلف أحد مرافقيه بإبلاغ رغبة الملك إلى ليويد .

ولكن الحكومة الفرنسية لم تقنع بذلك ، وأصرت على الحصول على تعهد خططي من الملك فعاد السفير لمقابلته ولكن لم يتمكن لأن الملك كان يستعد للعودة إلى برلين .

وإلى هنا كان بسمارك غائباً والأمور تجري بغير علمه ولما أرسل له الملك برقية يوضح فيها الأمور ثار بسمارك ونحاف أن تجري على غير ما يريد وعندها عمد إلى نشر برقية الملك بشكل مقتضب بحيث ظهرت وكأنها إهانة توجه للشعب الفرنسي بشخص سفيره . وهنا حدث ما كان يريد ويتنظر بسمارك فثار الشعب الفرنسي بشكل عنيف جداً وأخذ يطالب بالحرب . وفي ١٤ تموز عقد مجلس الوزراء الفرنسي ثلاث

جلسات متتالية أقر فيها طلب اعتمادات عسكرية في المجلس . وفي ۱۹ تموز وافق مجلس النواب على الطلب ويداً أعلنت الحكومة الفرنسية الحرب على بروسيا .

وقد أعلنت روسيا في ۲۰ تموز حيادها . ثم عادت في ۲۲ تموز فأعلنت أنها ستبقى كذلك طالما أن النمسا محايدة أما إذا حاربت النمسا فإن روسيا ستحارب إلى جانب بروسيا . أما إنكلترا فإنها أعلنت حيادها . هكذا أصبحت فرنسا وحدها أمام بروسيا .

### سير الحرب :

لقد أظهرت الأحداث الأولى للحرب أن الجيش البروسي كان كامل العدة والتدريب عندما دعى للقتال . ذلك أن القيادة العامة البروسية وعلى رأسها ( فون مولتكه ) بطل معركة سادوا ، قد أحسنت تدريب الجنود الألمان وإعدادهم بصورة دائمة للحرب ، كما أنها منذ سنة ۱۸۶۷ درست إمكانية وقوع حرب قريبة مع فرنسا فوضعت لها الخطط ودرست تفاصيلها وأعدت لها كل أسباب النجاح . لقد درست أوضاع الجيش الفرنسي وعرفت إمكانياته وقدراته ونقاط ضعفه ، كما أنها اتخذت التدابير المناسبة للإفادة إلى حد كبير من الوسائل الحديثة كالتلغراف وسكك الحديد ومدفعية الميدان في عملياتها القادمة . أما الجيش الفرنسي فعلى الرغم مما كان له في أوروبا من صيت وسمعة كبيرة حسنة فقد كان

يفتقر للقيادة الحازمة والسلاح الحديث والمؤن والمواصلات السريعة .

بسرعة كبيرة ، وقبل أن يكمل الفرنسيون تعبئة جيوشهم ، تقدمت الجيوش البروسية في الأراضي الفرنسية ناقلة المعركة إلى أرض أعدائها . وبعد يومين فقط من عبور البروسين الحدود الفرنسية حققوا في 6 آب على الجيوش الفرنسية انتصارين كبيرين أحدهما في الألزاس والثاني في اللورين . أثارت أخبار هذين الانكسارين في باريس موجة هائلة من السخط والفزع مما اضطر الأمبراطور نابليون الثالث للتنازل عن القيادة العليا للجنرال بازين Bazaine . . .

غير أن هذا الأخير كان أعجز من أن يوقف التقدم البروسي السريع . فقد توجه للاعتصام في مدينة متز Metz الحسنة التحصين . إلا أن البروسين لم يلبثوا أن فرضوا عليه حصاراً قوياً . وقد أظهر الجنرال بازين أثناء الحصار الكثير من التردد والتبااطئ أمام العدو مما عطل نهائياً قدرة جيشه البالغ تعداده ستة آلاف ضابط وضابطة وسبعين ألف جندي في وقت كانت فيه فرنسا بأمس الحاجة لهذا الجيش للدفاع عن أراضيها .

أما الجيش الفرنسي الآخر والذي كان يتجمع في مدينة شالون بقيادة الجنرال مكماهون والذي كان يسعى للتراجع نحو باريس للدفاع عنها ، فقد أمره نابليون بضرورة الإسراع نحو

مدينة متز لرفع الحصار عن جيش بازين المحاصر بالقرب من الحدود البلجيكية . غسر أن القائد البروسي فون مولتكه تعقب هذا الجيش في سيره والتقى به في ( سيدان Sedan ) حيث طوقه وأنزل به هزيمة ساحقة وأرغم حوالي مائة ألف رجل من جنوده على الاستسلام مع الإمبراطور نابليون ، وكان ذلك في الثاني من أيلول ١٨٧٠ .

ويوصول أنباء هذه الهزيمة إلى باريس ، سقط النظام الإمبراطوري وأعلنت الجماهير الفرنسية الهاشمة في الرابع من أيلول سنة ١٨٧٠ قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة وتشكيل حكومة الدفاع الوطني المؤقتة . وقد قررت هذه الحكومة متابعة الحرب إنقاذاً لشرف فرنسا وكرامتها . وبعد أن وصل الألمان في ١٣ أيلول إلى ضواحي باريس وفرضوا الحصار عليها نقلت القيادة الحربية الجديدة مقرها إلى مدينة ثور وأنهذت تدبير الحرب من هناك ضد بروسيا .

وقد كان بإمكان هذه الحكومة أن تقوم بأعمال هامة خاصة بعد أن تمكن الزعيم الشعبي الفرنسي غمبتا Gambetta من جمع جيش بلغ تعداده حوالي مائة وثمانين ألف جندي لو أن الجيش الفرنسي النظامي تمكن من الصمود في المعركة . في ٢٨ أيلول سقطت مدينتا تول وستراسبورغ وفي ٢٧ تشرين الأول استسلم الجنرال بازين وجيشه لمحاصريه فتفرغ الألمان آنذاك لتشديد الحصار على مدينة باريس وأجبروها على

الاستسلام في ٢٨ كانون الثاني عام ١٨٧١ رغم مقاومة أهلها الشديدة الباسلة .

وعقب إعلان الهدنة ، بدأت المفاوضات بين الدولتين غير أن بسمارك أصر على أن يقوم الفرنسيون بانتخاب جمعية وطنية توقع على الصلح بين الدولتين . وفي ٨ شباط ١٨٧١ ، جرت الانتخابات واجتمعت الجمعية الوطنية بعد أربعة أيام في مدينة بوردو وانتخبت السياسي الفرنسي تيرير Thiers رئيساً للسلطة التنفيذية وفوضته بإجراء مفاوضات الصلح مع الألمان .

### ولادة الامبراطورية الألمانية :

عقب معركة سيدان وسقوط الحكم النابليوني في فرنسا ، أدرك بسمارك أنه قد بات بإمكانه أن يبدأ تنفيذ الوحدة الألمانية دون أن يتضرر نهاية الحرب مع فرنسا . ولذا بدأ سلسلة من المفاوضات مع الملوك والأمراء في الولايات المتحدة الألمانية تهدف إلى تحقيق هذه الوحدة . كان عليه أول الأمر أن يصل مع هؤلاء إلى اتفاق على شكل الحكومة الألمانية الجديدة . ذلك أن عناصر الأحرار والمثقفين في كل الولايات الألمانية كانوا يريدون أن يقيموا دولة واحدة ديمقراطية مركزية تقضي على ما للأمراء والمقاطعات من امتيازات تاريخية . بينما كان أمراء وحكومات الولايات وبصورة خاصة الولايات الجنوبية مثل بافاريا يحرصون على كياناتهم

وامتيازاتهم . ولما كانت الحرب لم تنتهِ بعد ، وكانت الولايات الجنوبية تساهم فيها بشكل جدي فقد أثر إرضاعها .

ولذا فقد اختار النظام الاتحادي كشكل للدولة الألمانية الجديدة . وعلى هذا فقد بقيت الولايات والإمارات الألمانية على حالها وأعطت دولة بافاريا بصورة خاصة بعض الامتيازات كحقها بالإشراف على جيشهما زمن السلم وفي الاهتمام بالسياسة الخارجية للدولة الألمانية . هكذا توصل بسمارك مع الأمراء الألمان إلى اتفاق على إقامة دولة ألمانية موحدة في الشؤون الخارجية والعسكرية يرأسها القيصر الألماني . وتحتفظ ضمن هذه الدولة كل ولاية ألمانية بسيادتها الكاملة في الأمور الداخلية .

ولما كان ملك بروسيا ، وهو المرشح الوحيد لتسلم عرش الدولة الألمانية الجديدة يرفض أن يتسلم التاج الألماني من الشعب ، فقد جعل بسمارك الأمراء الألمان يعرضون عليه تاج ألمانيا .

في 18 كانون الثاني عام 1871 اجتمع الأمراء والملوك الألمان في قاعة المرايا بقصر فرساي ، وكان ذلك قبل سقوط العاصمة الفرنسية بعشرة أيام فأعلنوا قيام الإمبراطورية الألمانية وتوجوا وليم الأول ملك بروسيا رئيساً للدولة الجديدة ليحمل لقب القيصر الألماني .

## معاهدة فرانكفورت :

بدأت المفاوضات بين بسمارك مستشار ألمانيا ونمير رئيس الحكومة الفرنسية في 26 شباط . إلا أن المفاوضات طالت كثيراً وتعثرت أكثر من مرة بسبب صلابة بسمارك وإصراره على فرض شروط الصلح تكون على درجة كبيرة من الشدة والقساوة ، وعلى الرغم مما أظهره الرئيس الفرنسي نمير من عناد ودبلوماسية ، فإنه قد فشل في تغيير موقف بسمارك بشكل جذري . وأخيراً وافق الفرنسيون على شروط الصلح المذلة التي فرضها الألمان بقوة وعناد والتي ستكون في المستقبل وإلى حد كبير أحد أبرز أسباب الحرب العالمية الأولى . وفي 10 أيار 1871 تم توقيع الصلح بين الدولتين وهو المعروف بصلح فرانكفورت ؟ وأبرز شروط هذا الصلح ما يلي :

- ١ - تحتل بروسيا مقاطعتي الألزاسي واللورين وكذلك مدينة متر .
- ٢ - تدفع فرنسا غرامة حربية مقدارها خمسة مليارات فرنك ذهبي خلال خمس سنوات .
- ٣ - تحتل الجيوش الألمانية أراضي فرنسا الشمالية حتى يتم دفع الغرامة المالية ( وقد دفعها الفرنسيون كاملة خلال ثلث سنوات ليتخلصوا من جيوش الاحتلال البغيضة ) .

وهكذا انتهت الحرب البروسية الفرنسية التي تعتبر من أهم الحروب الأوروبية خلال قرن من الزمن ، أي منذ معاهدة فيينا ١٨١٥ حتى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ . ونتيجة تلك الحرب :

- ١ - تحققت الوحدة الألمانية .
- ٢ - تحققت الوحدة الإيطالية بضم روما إليها بعد أن انسحبت القوات الفرنسية منها في ٢٦ آب ١٨٧٠ .
- ٣ - قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة .

## الفصل الرابع

### سياسة بسمارك بعد الحرب

أصبحت ألمانيا بعد الحرب الفرنسية الألمانية سيدة الدول الأوروبية ، وأصبح بسمارك زعيمها ، سيد الموقف السياسي في أوروبا . وتحقق الوحدة السياسية الألمانية تحت زعامة بروسيا . وهي الوحدة التي خاض بسمارك من أجلها ثلاث حروب كما أشرنا أو مهد لها فلاسفة الألمان وكتابهم وشراوهم ومؤرخوهم حتى أصبحت صلة الألمان وفهم المقدس .

ولكن الانتصار الألماني على فرنسا ، ترك في نفس الفرنسيين أثراً لا يمحى إذ ليس من السهل أن ينسى الفرنسيون انتزاع الألزاس واللوارين ، لذلك كان هدفهم التخلص في المستقبل من الكلمة الانتقام . وترتب على ذلك - كما قال أحد المؤرخين الألمان - أن ألمانيا منذ أن تم تأسيس إمبراطوريتها وجدت فرنسا معلولاً يتهيأ دائماً لتحطيم بنائها عندما تسنح لها الفرصة . أضف إلى ذلك ، أن أعداء ألمانيا كانوا يرون دائماً في فرنسا الحليف المتحمس . ولذلك كانت سياسة بسمارك تتجه للعمل على أن تتحاشى الدخول في نزاع آخر مع

الفرنسيين . وقد تجلت تلك السياسة في الكتاب الذي أرسله بسمارك إلى السفير الألماني في باريس وقال فيه : « نحن نريد أن تركنا فرنسا نعيش بسلام » كذلك لم يحاول بسمارك أن يظهر أي شعور عدائي تجاه الجمهورية الفرنسية الناشئة ، ولكي يصرف أنظار الشعب الفرنسي عن الانتقام من أجل الأراضي الفرنسية المسلوبة حاول كثيراً توجيه أنظار الفرنسيين نحو الاستعمار في الخارج وهو في هذا يهدف إلى غرضين : أولهما إقحام الفرنسيين في حروب استعمارية في الخارج ، وثانيهما إثارة العداوة بينهم وبين الدول الأخرى . فشجع فرنسا على غزو تونس لكي تختلف مع إيطاليا وشجع إنكلترا على غزو مصر ليقوم نزاع بينها وبين فرنسا . ومع ذلك كان يشعر في قرارة نفسه أن لا سبيل إلى إصلاح ما أفسدته الحرب السبعينية بين الدولتين ، وزاد هذا الشعور قوة ما لاحظه من أن فرنسا قد أفاقت بسرعة عجيبة من الكوارث التي نزلت بها سنة ١٨٧٠ وبدأت تعلم في جد وسرعة لتنظيم جيوشها . وكان القائد الألماني مولتكه على حق عندما قال : « لقد كسبنا احترام العالم في الحرب الأخيرة ولكننا خسنا جبه ، إن ما جنينا به بقوة السلاح في ستة أشهر ستضطر للدفاع عنه مدى خمسمائة عاماً .

عزل فرنسا :

لذلك وجه بسمارك كل همه نحو عزل فرنسا عن الدول الأوروبية حتى لا تستطيع أن تجد من بينها حليف تعتمد على معاونته ، لأنه كان يعتقد أنه ما دامت فرنسا بغير حليف فلن

تكون خطراً يهدد ألمانيا . وقد تسلطت تلك الفكرة عليه أثناء الحرب الفرنسية - البروسية إذ كان يخشى من تكوين أي تحالف أوروبي يتدخل في اللحظة الأخيرة في حرب الألمان من ثمار النصر . فقد كان يعلم تماماً أن إيطاليا مثلاً لا تنس الخدمات التي أدتها لها فرنسا في حروب الوحدة ، وأن النمسا قد تفك في أن تنتقم لنفسها بسبب طردها من الاتحاد الألماني ، وأن روسيا تستطيع أن تعرقل النصر الألماني لو قامت بأية حركة في الجبهة الألمانية الروسية ، ومع ذلك فقد أمنت ألمانيا كل تلك المخاوف حتى انتصرت على فرنسا .

### بسمارك يؤلف الجبهة الأوروبية :

وظل ذلك الخوف من تكوين جبهة أوروبية ضد الإمبراطورية الألمانية ، يساور بسمارك حتى هدأ تفكيره إلى تأليف حلف دفاعي يضم بعض أعداء الإمبراطورية الألمانية القدامى ، واستطاع بدهائه أن يحقق تلك الخطوة مع النمسا والروسيا ، وساعده على ذلك أن آل هابسبورغ قد فقدوا الأمل في إمكان استعادة سيادتهم على ألمانيا ، وتحولت السياسة النمساوية إلى تحقيق بعض أطماعها في بلدان البلقان . ولذلك كانت النمسا في أشد الحاجة إلى تأييد ألمانيا لها في سياستها الشرقية ضد العناصر السلافية ، وخصوصاً أن روسيا كانت تتوجه نفس الاتجاه لبسط سيطرتها على شبه الجزيرة البلقانية .

أما عن روسيا فقد حاول بسمارك أن يتبع أيضاً سياسة من التفاهم معها ، ولا سيما أن العلاقات بين ألمانيا وروسيا ظلت طيبة منذ أوائل القرن التاسع عشر ، بل إن الصداقة الشخصية بين العاهلين ولهم الأول إمبراطور ألمانيا وابن أخيه ألكسندر الثاني قيسراً روسياً ، قد زادت من تفاهم البلدين . وكان من السهل على بسمارك أن يقنع كلاً من النمسا وروسيا ، بأن التيارات الثورية والمبادئ الديمقراطية والاشراكية التي انتشرت بين الجمهور الفرنسي وبعض الطبقات الألمانية والروسية ، أصبحت خطراً يهدد كيان الحكم الأوتوقراطي في الدول المحافظة ، وعليها إذن أن تعمل على تكوين حلف مقدس فيما بينها .

وفي سنة ١٨٧٢ ، تقابل الأباطرة الثلاثة في برلين ، ووصلوا إلى اتفاق شفهي فيما بينهم ، وقد أطلق على هذا التفاهم أو هذا الاتفاق اسم «عصبة الأباطرة الثلاثة» . الواقع أن هذا التفاهم لم يعقبه توقيع معاهدة بين الدول الثلاث ، ولكن كل ما حدث أن الدول الثلاث الكبرى ، روسيا وألمانيا والنمسا اتفقت جميعها على الإبقاء على الحدود الراهنة لأوروبا ، والعمل على تسوية المشكلات الناجمة عن المسألة الشرقية ، والمعاونة على إخماد الحركات الثورية في أوروبا .

واستطاع بسمارك أيضاً أن يستميل إيطاليا ، ثم توجت العلاقات الألمانية الإيطالية بزيارة الملك إيمانويل لبرلين عام

١٨٧٣ . وبذلك تم لبسمارك عزل فرنسا عزلاً لا يكاد يكون تماماً .

لكن سبب السنوات القادمة لبسمارك أن تحالف الأباطرة الثلاثة ليس من القوة التي يعتمد عليها وبالتالي فإن تأييد روسيا والنمسا له ليس تأييداً مطلقاً . وقد ثبت ذلك عام ١٨٧٥ ، عندما أصدر الرئيس الفرنسي مارشال مكماهون ، الذي أصبح رئيساً للجمهورية في ٢٤ أيار ١٨٧٣ ، قانوناً جديداً لتنظيم الجيش وزيادة عدد أفراده . فاحتاج بسمارك على ذلك مدعياً أن هذا القانون ما هو إلا تهديد موجه ضد ألمانيا وهدد بالتجوء إلى إعلان الحرب إذا لم يوقف مكماهون العمل بالقانون الجديد . فلجمأت فرنسا إلى طلب المساعدة الأوروبية وخاصة روسيا وبريطانيا . واستطاع وزير الخارجية الفرنسي دوق ديكياز أن يصيّب نجاحاً دبلوماسياً عندما جعل القيصر يذهب إلى برلين ليقنع بسمارك بالعدول عن الحرب وأنه (أي القيصر) يضمن سياسة فرنسا السلمية . ومن هذا الموقف ثبت أن اتفاق الأباطرة الثلاثة ليس متيناً ؛ ولذلك سوف يتبع بسمارك تجاه فرنسا ، سياسة جديدة وهذا ما سوف نراه فيما بعد .

## الفصل الخامس

### المشكلة الشرقية ومؤتمر برلين ١٨٧٨

في أعقاب الانتصارات الكبرى التي أحرزها بسمارك على كل من النمسا وفرنسا ، أصبح التوازن الدولي غير واضح الاتجاهات ، فألمانيا أصبحت عملاقاً في قلب القارة الأوروبية ولكن لا تستطيع أن تسيطر عليها ، وفرنسا مهزومة ، وتعاني من اضطراب سياسي شديد ، ومع هذا كانت قادرة على أن تحد من نشاط العملاق ، خاصة وأن بريطانيا أثرت - بذكاء سياسي - أن لا تنهز الفرصة وتنقض على فرنسا حفاظاً للتوازن الدولي ، وحتى لا تزداد الامبراطورية الألمانية قوة على قوة . وكانت كل من روسيا والنمسا لا تريدان أن تتطور الأمور إلى ما هو أعقد مما وصلت إليه ، وبالتالي كان هناك نوع من التوازن الدولي القائم على القلق من تطورات المستقبل ؛ ومن ثم كانت الأمور الدولية في حاجة إلى أزمة كبيرة حتى تكتشف كل دولة الطريق الذي يجب أن تسير فيه من حيث الارتباطات السياسية ، خاصة وأن فرنسا كانت تبحث عن قوة تحالف معها ضد العملاق الألماني وكانت المشكلة الشرقية هي التي كشفت لبعض الدول الطريق التي يجب أن تسلكها . وتركز

## المسألة الشرقية حول الموضوعات التالية :

- ١ - الصراع التقليدي بين الشرق الإسلامي ( الدولة العثمانية ) وأوروبا الصليبية .
- ٢ - مشكلة نشوء ونمو الروح القومية لدى الشعوب البلقانية ، لدى السلاف أنفسهم من صرب وبلغار ، الأمر الذي كان يعرضها للاضطهاد العثماني بسبب وقوعهم تحت سلطنته .
- ٣ - كانت في داخل البلقان نفسه وإلى جانب التعصب القومي مشكلة التعصب المذهبي ، بينما غالبية الشعوب السلافية أرثوذكسية كانت ( الأفلاق والبغدان ) كاثوليكية . وكانت هناك جيوب كاثوليكية في الشعوب السلافية إلى جانب الجيوب الإسلامية .
- ٤ - كما ظهر إلى جانب التهصب القومي رغبة في فصل الكنيسة على أساس قومية ، فأراد البلغار إنشاء كنيسة خاصة بهم لا يكون أكليروسها يونانياً أو أنها تتبع البطريرك اليوناني وإنما تكون كنيسة بلغارية مستقلة .
- ٥ - كانت هناك مخاوف من أن تضيع روسيا يدها على منفذ لأي من خطوط المواصلات العالمية عبر آسيا الوسطى أو عبر الشرق الأدنى إلى الهند مستغلاً ضعف الدولة العثمانية والحماس الصليبي لدى مسيحيي روسيا .

كان نمو التعصب السلافي القومي المسيحي في البلقان

المقاومة الإنكليزية - الفرنسية - النمساوية الشديدة للنمو الروسي على حساب الدولة العثمانية هي السبب في تأخير تصفية هذه الدولة .

ولكن وفق ماذا سنتير عليه الأمور بعد أن تجلت قيمة ذلك الوفاق الروسي - البروسي الذي مكن الروس من ضرب الشورة البولندية ١٨٦٣ ومن تخلصها سنة ١٨٧٠ من بنود معاهدة باريس ١٨٥٦ التي كانت تقييد النشاط الروسي البحري العسكري في البحر الأسود . مع الملاحظة أنه في ذلك الوقت أصبحت روسيا تهدد قلب الأمبراطورية العثمانية من جهتين : جهة أرمينيا - أرضروم وجبهة البلقان .

ومع الملاحظة ، أن حاجة بسمارك إلى روسيا بعد ١٨٧١ ، أصبحت أقل منها قبل ذلك ، ومخاوف روسيا من ألمانيا بعد ١٨٧١ - أصبحت أكثر بكثير من مخاوفها من بروسيا قبل تلك السنة ، كان هناك نمو متزايد في المصالح الأوروبية في الدولة العثمانية ، في نفس الوقت الذي كانت فيه بريطانيا مطمئنة منذ حرب ( القرم ) إلى أن يدها عليها في توجيه السياسات الخاصة بمستقبل الشرق الأوسط .

وكانَت الدولة العثمانية مستعدة لخوض حرب ضد روسيا إذا حاولت الأخيرة تقويض تلك الأسس ؛ ولكن بمرور الزمن أخذت السياسة البريطانية نفسها تتحول من سياسة الحفاظ على كيان الدولة العثمانية إلى سياسة احتلال واقتalam الدولة العثمانية ، وذلك بعد سنوات من الاضطرابات المالية

والتنظيمية التي اجتاحت الدولة العثمانية ومصر وتونس ، واضطرابات طائفية ، اجتاحت سوريا ولبنان ١٨٦٠ . ثم إن البلقان أصبح في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر منطقة لا يمكن السيطرة عليها والتحكم في تطور الأمور بها ، ومن ثم كانت هناك مخاوف في كافة العواصم الأوروبية من أن المشاكل البلقانية قد تورط أوروبا في حرب غير مجدية . وكان بسمارك - قد أدرك أن مفتاح الموقف الدولي في طريقة علاج مشكلات الشرق يجب أن لا تؤدي إلى صدام بين الدول الكبرى ، وأن دماء الأوروبيين الزكية يجب أن لا تراق بسبب هذه المسائل التي يجب أن تحل على مائدة المفاوضات ، وانه إذا أرادت الدول الكبرى إعادة النظر في التوازن فليتم هذا بتسويات ودية على حساب الدولة العثمانية .

كان بسمارك يريد سلاماً أوروبياً يجعل لألمانيا مكانتها العليا في تصريف الأمور الدولية ، وكان لذلك يرغبه مخلصاً في رؤية السلام ينشر لواءه على العلاقات الألمانية - الفرنسية - البريطانية ، بل على العكس مما كانت ترددده صحافة تلك الأيام كان لا يرغب في حرب فرنسية بريطانية ، تلك الحرب التي كانت كثيراً من المراجع تتوقعها بسبب توالي الأزمات - بعد ١٨٧٥ - بين هاتين الدولتين الاستعماريتين في عدة أجزاء من إفريقيا والبلاد العربية وأسيا . وقد كتب بسمارك مذكرة في ٢٠ تشرين الأول عام ١٨٧٦ يقول فيها : « إن تركيا بأسرها ، وما تشمله من أعراق بشرية مختلفة ، ليست بتلك

المؤسسة السياسية الهامة التي تبرر نشوب حرب طاحنة بين الدول الأوروبية المتقدمة إكراماً لها ؛ كما أن العطف على مصير هذه البلدان الداخلية في الامبراطورية العثمانية وعلى الشعوب التي تقطنها . لا يوازي في نظر أية حكومة ، التخوف من التعقيدات السياسية الخطرة التي قد تقلب الوضع الحاضر » .

إن السلطان عبد الحميد الثاني الذي استعمل منتهى الشدة في إخماد الثورة في بلغاريا ، أثار سخط الدول الأوروبية عليه . فأعلنت روسيا في تشرين الثاني عام ١٨٧٦ أنها سوف تتدخل لتضع حدأً لتصرف رجال السلطان ضد سكان البلقان المسيحيين . هذا الإعلان جعل بريطانيا - حفاظاً على سلامة الامبراطورية العثمانية - ، تدعوه إلى عقد مؤتمر أوروبي في القسطنطينية للضغط على السلطان من أجل الإسراع في إجراء إصلاحات ضرورية في أراضي الامبراطورية وخاصة في البلقان .

وكان بريطانيا ترغب من وراء الدعوة لعقد المؤتمر ، منع روسيا من الذهاب إلى الحرب خوفاً من انحصار الامبراطورية العثمانية . فعقد المؤتمر في ٢٣ كانون الأول بحضور روسيا - النمسا - بريطانيا - فرنسا - إيطاليا . وفي أثناء انعقاد المؤتمر أصد السلطان عبد الحميد دستوراً جديداً منح بموجبه رعایات الحرية والمساواة بدون تمييز بين المسلمين وال المسيحيين . كما وأنه أقر إقامة مجلس تمثيلي في بلاد

البلقان حيث يمكن للشعوب المسيحية أن تعرّض في طلباتها. ولكن في الواقع أن السلطان عبد الحميد لم يكن يرحب في الإصلاح السياسي، فظهر الخلاف بينه وبين رجال الإصلاح (جمعية تركيا الفتاة) حول المسائل الالزامية لتنفيذ الدستور الجديد. واستطاع السلطان أن يهرب من تنفيذ الدستور بعد أن رفضت بريطانيا توجيه تهديد أوروبي مشترك ضده. فعزل مدخلت باشا الزعيم الأكبر لحزب الإصلاح وأيد الدستور في 5 شباط 1877. كما وأنه في الشهر التالي، عطل الدستور مما أدى بالدول الأوروبية إلى الاجتماع الثاني في لندن وأصدروا في 31 آذار بروتوكول لندن؛ فطالبو بموجبه السلطان بعدة مطالب تتعلق بمعاملة رعاياه المسيحيين وتحسين وضعهم.

السلطان رفض الاعتراف ببروتوكول لندن كما وأنه رفض الاقتراحات التي وضعها السفراء قبلًا في مؤتمر القسطنطينية، مما جعل القيصر الروسي يعمل منفردًا بعد أن تعذر الوصول إلى عمل أوروبي موحد - فأعلن الحرب على تركيا في 24 نisan. ولم يعلن القيصر الحرب على تركيا إلا بعد أن اتفق مع الإمبراطورية النمساوية - المجرية. فقد عقدت معااهدة سرية بين الدولتين في 15 كانون الثاني 1877 بعد فشل مؤتمر القسطنطينية، ونصت المعااهدة على ما يلي :

١ - تقف النمسا على الحياد. على أن تهب لمساعدة روسيا إذا اقتضت الظروف ذلك. كما وأنها سوف تبذل مساعدتها

لإبعاد إشتراك دولة ثالثة في الحرب (تعني بريطانيا) .

- ٢ - تعهدت روسيا بعدم احتلال بلاد الصرب .
- ٣ - تتغاضى روسيا عن احتلال النمسا للبوسنة والهرسك في نهاية الحرب .

بدأت الجيوش الروسية بالتقدم في الأراضي التركية وانضمت رومانيا وصربيا والجبل الأسود إلى جانب روسيا ولم تمنع بريطانيا روسيا من التوغل في الأراضي التركية بسبب تأكيدات القيصر الروسي الإسكندر الثاني لبريطانيا بأن الجيش الروسي لن يحتل القسطنطينية . لقد جاءت تأكيدات القيصر بعد إرسال مذكرة إلى الحكومة الروسية في ٦ أيار جاء فيها أن الحكومة البريطانية لا يسعها أن تقف مكتوفة اليدين إذا وقعت القسطنطينية في يد غير الدولة العثمانية . وفي نهاية عام ١٨٧٧ كانت القوات الروسية تتقدم نحو القسطنطينية خلافاً لتأكيدات القيصر ، مما جعل الحكومة البريطانية تسارع للتدخل لمنع روسيا من السيطرة على المضائق . وكان دزرائيلي - رئيس الحكومة البريطانية - على استعداد للذهاب إلى الحرب حتى يمنع الكارثة التي تقف بريطانيا دائماً دون حدوثها . فأمر الأسطول البريطاني بالتوجه إلى بحر مرمرة . وأرسل وزير الخارجية اللورد سالزبورى مذكرة إلى الحكومة الروسية يعلمها فيها أن بريطانيا لن تسمح باحتلال المضائق من قبل أية دولة .

وطلب اندراسي رئيس وزراء النمسا في ١٥ كانون الثاني

١٨٧٨ من روسيا بأن لا تضع أوروبا تحت الأمر الواقع ، أي لا تفرض شروط الصلح ضد تركيا قبل استشارة الدول الأوروبية .

خوفاً من التهديدات البريطانية أمر القيسنر قادته بعدم دخول القسطنطينية وتوقف الزحف في مدينة سان استيفانو - وهي على مقربة من العاصمة التركية - وطلب من سفيره في القسطنطينية بإجراء مفاوضات مع السلطان . وفي ٣ آذار عام ١٨٧٨ وقعت معاهدة سان استيفانو San Stéfano التي نصت على ما يلي :

- ١ - حصلت روسيا في الجزء الآسيوي على مدينة قرش في الأناضول . وباطوم على البحر الأسود وعلى بايزيد . وفي الجزء الأوروبي حصلت على دوبرجيه .
- ٢ - تنازلت روسيا عن دوبرجيه لرومانيا مقابل أن تحصل روسيا على بساربيا الجنوبية .
- ٣ - منع بلغاريا حدوداً أوسع . فقد أصبحت دولة مستقلة استقلالاً ذاتياً تمتد من البحر الأسود إلى بحر إيجه بحيث تضم معظم مقدونية ويحق لروسيا الاحتفاظ بحاميات عسكرية لمدة ستين .
- ٤ - منع بلاد الصرب ورومانيا والجبل الأسود استقلالاً تماماً .

لقد فرضت روسيا معاهدة سان استيفانو على تركيا معاهدة بين القوي الذي أملى شروطه على الضعيف . مما أدى

إلى ظهور معارضة أوروبية وخاصة من قبل بريطانيا والنمسا ، وبذلك تكون روسيا قد وضعت أوروبا أمام الأمر الواقع . بريطانيا رأت أن إقامة دولة بلغاريا الكبرى تمتد من بحر الأسود إلى بحر إيجي بتأييد من روسيا ، ما هو إلا امتداد للنفوذ الروسي ليصل إلى قلب القسطنطينية والسيطرة على المضائق كما وأن بريطانيا رأت أن التوسع الروسي في قرش وباطوم وبإيزيد يهدد طرق المواصلات البريطانية عبر العراق .

أما النمسا فإنها عارضت معااهدة سان استيفانو ، لأنها لم تحصل على البوسنة والهرسك كما وعدها القيصر على أثر توقيع المعااهدة السرية في ١٥ كانون الثاني ١٨٧٧ . إذن في هذا الجو الدولي المتأزم وخوفاً من حرب بين بريطانيا وروسيا ، أخذ بسمارك زمام المبادرة واقتراح عقد مؤتمر دولي في برلين للنظر في تعديل شروط معااهدة سان استيفانو . ووافق القيصر على اقتراح بسمارك لأنه أيقن بأن الدول الأوروبية لن ترضي بمعاهدة سان استيفانو . كما وأنه لم يكن على استعداد لأن يجاذف بحرب ضد بريطانيا والنمسا .

قبل انعقاد مؤتمر برلين في ١٣ حزيران ١٨٧٨ ، سعى القيصر بالطرق الدبلوماسية من أجل إرضاء بريطانيا على حساب الإمبراطورية العثمانية فاقتراح عليها احتلال مصر لقاء تسوية الأوضاع في البلقان بما يتلاءم ومصلحته . ولكن الحكومة البريطانية رفضت المساومة لأنها كانت لا تريد أن يصل

النفوذ الروسي إلى المياه الدافئة ، مما يشكل خطراً على خطوط مواصلاتها في البحر الأبيض المتوسط ، وسارت إلى تعزيز وجودها العسكري في المنطقة مما جعل الحكومة الروسية تطلب من سفيرها في لندن الاتفاق مع الحكومة البريطانية على ما يلي :

١ - عدم امتداد حدود الدولة البلغارية إلى بحر إيجه . وهذا يعني إبعاد النفوذ الروسي عن مياه البحر الأبيض المتوسط .

٢ - تعهدت روسيا بإعادة بايزيد إلى السلطان خوفاً من امتداد روسي إلى أراضي العراق .

بعد أن تمت المفاوضات الجانبية بين روسيا وبريطانيا أمكن عقد مؤتمر برلين في ١٣ حزيران . وكان عقد المؤتمر في برلين فرصة لبسمارك لكي يلعب دوراً أساسياً لإنقاذ السلام الأوروبي . لقد كان يعمل من أجل المحافظة على حسن العلاقات بين المؤتمرين وفي التوفيق بين وجهات النظر . علماً أنه كان يؤيد السياسة البريطانية التي كانت ترمي إلى تضييق الخناق على روسيا .

لقد انتهى مؤتمر برلين بتعديل معاهدة سان استيفانو على الشكل الآتي :

- ١ - توضع البوستة والهرسك تحت حماية النمسا .
- ٢ - أما دولة بلغاريا الكبرى فقد تقلصت مساحتها فأعيد قسم منها إلى تركيا وما تبقى أصبح إمارة بلغارية تتمتع بالحكم الذاتي .
- ٣ - تعيد روسيا بايزيد إلى السلطان العثماني .

هذا التعديل جرى على معاهدة سان استيفانو لصالح الأمبراطورية العثمانية ولبريطانيا ؛ فدزرايلى ، رئيس الوزراء британى لعب دوراً رئيسياً في هذا المؤتمر ، فاستطاع تقليل مساحة الدولة البلغارية الكبرى حتى يبعد النفوذ الروسي عن المياه الدافعة ، واستطاع أن يعقد اتفاقية سرية في ٤ حزيران ١٨٧٨ مع السلطان العثماني ، نصت على منع بريطانيا جزيرة قبرص مقابل أن تدافع بريطانيا عن الأراضي العثمانية إذا حاولت روسيا التوسع في الأناضول . واحتلال قبرص ما هو إلا مقدمة لاحتلال مصر والسيطرة على قناة السويس نظراً لارتباط مصالح بريطانيا التجارية بها . إن افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ كان أحد العوامل الرئيسية التي دفعت بريطانيا لاحتلال قبرص كقاعدة قوية من قناة السويس .

وصف القيصر الروسي مؤتمر برلين بأنه تحالف أوروبي ضده بزعامة بسمارك . لقد خسر القيصر الكثير من المكاسب التي حققها بموجب معاهدة سان استيفانو وألقى مسؤولية تلك الخسارة على عاتق بسمارك ، ومن هنا بدأ انفراط حلف

الأباطرة الثلاثة . ومن أجل الانتقام من بسمارك فكر القيصر بالتفاهم مع فرنسا التي تبحث عن حليف .

أما فرنسا فبعد أن عرفت بالاتفاقية السرية الموقعة مع بريطانيا والسلطان بشأن قبرص ، احتجت على ذلك وطالبت بالتعويض . فوافقت بريطانيا على احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ حتى تحتل هي مصر في العام التالي . كما وأن بسمارك بدوره شجع الفرنسيين على احتلال تونس لعل ذلك ينسى الشعب الفرنسي مرارة الهزيمة في سدان وسلح الألزاس واللورين عن فرنسا وضمها إلى ألمانيا . كما وأنه كان يعتقد بأن احتلال تونس سوف يثير الخلاف مع إيطاليا ، فتبقى فرنسا في عزلة .

وأخيراً لا نستطيع أن نقول أن مؤتمر برلين أوجد تسوية دائمة للمسألة الشرقية . فالولايات البلقانية لم تكن راضية عن التسوية . فرومانيا سلخت منها بسراييفا لصالح روسيا مع العلم أنها ساعدت روسيا في الحرب . كما وأن صربيا لم تكن راضية عن ضم البوسنة والهرسك إلى الإمبراطورية النمساوية لأنها كانت تطمع في ضمها إليها . كما وأن بلغاريا لم تكن راضية عن التسوية لأنها قلصت حدودها التي رسمتها معاهدة سان استيفانو .

## التسابق الاستعماري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥

أدى تزايد المعرفة لدى الدول الاستعمارية بالبلاد المستضعفة أو المتخلفة إلى زيادة حدة الاستعمار الأوروبي وانطلاقه في مناطق كانت مجهولة من قبل .

وإلى جانب زيادة المعرفة بالبلدان المتخلفة ، ونمو الدعوات إلى تشريع العمل الأوروبي في إفريقيا باسم « رسالة الرجل الأبيض » أو باسم « مقاومة تجارة الرقيق » ، التقط رجال السياسة الأوروبية ومجلس الشركات الكبرى الأوروبية هاتين الفكريتين واستخدمتهما - بالتعاون مع الدول الأوروبية نفسها ومع دعاة هذين المبدئين الرائعين - في السيطرة على الكثير جداً من البلاد الإفريقية سيطرة استعمارية استغلالية قاسية .

هذا ما جعل النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة نمو التحركات الاستعمارية الأوروبية ؛ إن السكان في أوروبا كانوا يتزايدون بسرعة أكثر بسبب الأساليب الصحية التي منعت الأوبئة الكبرى من التردد على القارة الأوروبية ، فضلاً عن أن ارتفاع مستوى المعيشة والتعليم في أوروبا خفض من نسبة الوفيات ، في نفس الوقت الذي قلل فيها الانقلاب الصناعي من الحاجة إلى الأيدي العاملة وزاد من عدد الخارجين عن القانون لأسباب سياسية أو اجتماعية . فوجدت بعض الدول

- مثل إنجلترا - في التوسع الاستعماري في أستراليا ونيوزيلندا ومثل روسيا في التوسع الاستعماري في سiberيا فرصة للتخلص من هؤلاء الخارجيين عن القنانون بإرسالهم إلى تلك المستعمرات .

خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت بريطانيا مطمئنة إلى أن مستعمراتها بعيدة عن متناول الدول الطامنة أو الحاقدة طالما هي مسيطرة على مفاتيح البحار الدولية .

وكانت بريطانيا مكرهه من الحكومات الأوروبيه بسبب ما اتفق به الإنجليز من مستعمرات شاسعة . وكان الإنجليز قد ضمنوا نوعاً من الطمأنينة من ناحية ابعاد الخطر الأوروبي عن مستعمراتها وذلك بعد هزيمة روسيا في حرب القرم (1856) وهزيمة فرنسا أمام بروسيا في 1871 . كما نجح الإنجليز في وقف التقدم الروسي صوب الهند . وأدى هذا إلى أن يجد الروس أن الطريق البالى للتوسع الاستعماري هو الزحف شرقاً نحو منشوريا وكوريا . فكان أن اتسعت روسيا نتيجة لذلك اتساعاً ضخماً في تلك المسافات الممتدة حتى الصين ، كما سيطرت على مسلمي القوقاز وتركستان .

وفي إفريقيه ، كانت بريطانيا قد وضعت أقدامها بقوة في بعض المراكز في إفريقيه (مثل الكاب منذ عام 1800 وغانا عام 1874) ومنذ ذلك الوقت واجهت تنافساً حامياً من جانب

فرنسا وكذلك من جانب الدولتين الأوروبيتين الجديدتين : إيطاليا وألمانيا . وكان التنافس حاداً للغاية بين هذه الدول ، واستخدمت كل وسائل الخداع والغش والدسيسة لتحقيق الأهداف الاستعمارية . فقد كان لفرنسا وإيطاليا نفوذ متقارب في تونس . وكل منها تريد الانفراد بها ، ونجح فرنسا في أن تخدع إيطاليا وتنفرد بتونس (١٨٨١) ونفس الشيء تقريباً فعله الإنجليز بالفرنسيين في مصر ، وسعى الألمان في الثمانينات إلى المشاركة في الاستعمار ، بعد أن أصبحت في أيديهم قوة عسكرية كبيرة ورؤوس أموال ضخمة ، توفرت بعد توحيد ألمانيا ، فانطلق الألمان إلى الأماكن الأفريقية التي لم تكن قد استعمراها بعد ، وبسرعة خارقة استطاع بسمارك ابتداء من ١٨٨٤ فرض حمايته الاستعمارية على مناطق شاسعة في أفريقيا .

والحق ، أنه منذ ١٨٨٤ أصبحت بسمارك ، وللحكومة الألمانية من بعده كلمة رئيسية في توزيع أفريقيا بين الدول الأوروبية وتجلى ذلك في الظروف التي أدت إلى عقد مؤتمر برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥ . وتجنبأً للتعقيدات الدولية التي قد تنشأ عن ترك الأمور هكذا بين الدول الأوروبية تنافس بشكل يعرضها للمخاطر كبيرة اقترح بسمارك عقد مؤتمر دولي في برلين بشأن الكونغو بصفة خاصة وافريقية بصفة عامة . لماذا كانت الدعوة من جانب بسمارك بالذات ، مع أن الإمبراطورية الألمانية لم يكن لها في الكونغو مصالح واضحة وإن كان لها مطالبات وإدعاءات في توغولاند ؟

الواقع ، أن الإمبراطورية الألمانية أدركت - على يد مستشارها بسمارك - أنه لا بد من إرضاء التطلعات الاستعمارية لدى البرجوازية الألمانية النامية ، وإلى جانب هذه وجد بسمارك أن الوقت قد ألح على ألمانيا كي تشارك في التسابق الاستعماري منعاً لاحتكار الدول الأوروبية الأخرى للإمبراطوريات الاستعمارية وحتى يصبح الباب مفتوحاً أمام الدول الأخرى الراغبة في استعمار أجزاء من إفريقيا . وحيث أن بسمارك كان يرى أن استعمار إفريقيا يجب أن يتم دون صدام مسلح بين الدول الأوروبية وإنما يجب أن يتم في مؤتمر دولي ، كانت الدول الأوروبية الأخرى مقتنة إلى حد كبير بجدوى مثل هذا الأسلوب الدولي . نجحت فكرة الدعوة إلى عقد المؤتمر في برلين واستمر انعقاده من نوفمبر 1884 إلى فبراير 1885 .

حضر المؤتمر مندوبو إنجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا والدولة العثمانية وبلجيكا وهولندا والترويج والسويد واسبانيا والبرتغال ، وانتهى بتوقيع ميثاق ينص فيما ينص على :

- ١ - حياد إقليم حوض الكونغو وحرية التجارة فيه .
- ٢ - حرية الملاحة في حوض الكونغو والنيجر .
- ٣ - إلغاء تجارة الرقيق والقائمين عليها .
- ٤ - ضرورة قيام أية دولة أوروبية تريد استعمار أرض إفريقيا بإخطار الدول الأخرى بالأراضي التي تضع يدها عليها

وعند إعلان أية دولة أوروبية حمايتها على أرض إفريقية فيجب أن يلزム ذلك وجود احتلال فعلي لتلك الأراضي وليس مجرد ادعاء بالحماية .

مهدت هذه القرارات لإعلان بلجيكا ظهور (الكونغو الحرة) تمهدًا لكي تتحكم هي استعمارها ، ولقيام ألمانيا بنشاط استعماري واسع النطاق في إفريقية جعلها منذ ١٨٨٤ سيدة مناطق شاسعة للغاية في إفريقية تشمل :

١ - توغولاند .

٢ - الكامرون .

٣ - جنوب غرب إفريقية .

٤ - تنزانيا .

٥ - واستبدلت منطقة (ويتسو) في شرق إفريقية بجزيرة (هليجولاند) ذات الموقع الاستراتيجي الهام جداً بالنسبة للدفاع البحري عن ألمانيا .

ويلاحظ كذلك اشتداد حرب الشركات منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر ، إذ سارعت الدول الكبرى الأوروبية - المعنية باستعمار إفريقية - ، إلى تكوين هذه الشركات للسيطرة على أجزاء من أرضها وسواحلها وداخلها مستندة إلى المعاهدات التي كانت تعقد مع رؤساء القبائل . كما سارعت إلى رفع الأعلام الخاصة بها على أية أرض يمكن السيطرة عليها ، الأمر الذي ضاعف من سرعة تمزيق إفريقية واقتسامها بين الدول الاستعمارية الأوروبية .

## الفصل السادس

### سياسة بسمارك الداخلية

استمر بسمارك يقبض على زمام السلطة ، ويوجه دفة شؤون بلاده و يؤثر في مصاير العالم ، مدة تسعه عشر عاماً بعد تأسيس الامبراطورية الألمانية . وطابت نفسه بعد الأعمال الجليلة التي أنجزها إلى حصر جهوده في وقاية ألمانيا من التقلبات الداخلية والحروب الخارجية . فلم يكن له مطعم في تأسيس امبراطورية استعمارية ، أو التوسع في الشرق . وكان من بين القواعد الأساسية لسياسته ، ألا يعرض صداقته إنجلترا بلاده للخطر ، بتحدي سيطرتها على البحار . فقد كان مرهف الإدراك بالمعاشر والأخطر التي يطويها الموقف السياسي في القارة الأوروبية بين دفتيره ، فلم يتردد أن يخاطر بمعامرات جديدة . فقد أبصر أن فرنسا لا تنزع إلى المصالحة ، وروسيا لا يمكن الركون إلى صداقتها ، والنمسا ما زالت تحس بسخط على برلين ؛ فاضطر بسمارك إلى أن يركز موهبه الدبلوماسية كلها إلى هاتين المعضلتين وهما : كيف يكون على ود وصداقة مع روسيا من غير إغضاب إنكلترا ومع النمسا من غير ابعاد روسيا عنه ؟

وكان عزل فرنسا ، والسيطرة على أوروبا بواسطة جيش الماني قوي والمحافظة على نظام حكمه الأوتوقراطي ، المبادئ الهدية لسياسته . وقد ساعدته على النجاح عدة صدف عجيبة من طول العمر وقصره ، فإن الإمبراطور وليم الأول الذي مات سنة 1888 ، كان عمره قد طال إلى زهاء التسعين عاماً . وحينما اعتلى ابنه فريدريك العرش ، كان السرطان يهدد حياته . فشلت يداه خلال حكمه الذي دام تسعين يوماً فقط ، عن أن يؤثر في مجرى الأمور . ويموت هذا العاهل الحر التزعة هذه الميالة المفجعة ، أزيحت أعظم عقبة في سبيل بسمارك لتنفيذ سياسته .

### التغيرات الاقتصادية :

في هذه الأثناء ، أخذ يطل على ألمانيا تغير في حياتها الاقتصادية شبيه - ما عدا في شدة سرعته - بذلك التغير الذي خبرته إنجلترا في ثورتها الصناعية . فقد امتازت عقود السنين التي رافقت الحرب البروسية الفرنسية بتقدم عجيب في الصناعة والتجارة الألمانية ، واغتنت فجأة تلك البلاد بعد فاقة . وهرع الأهلون الذين كانت كثرتهم الكبرى تقطن الريف ، إلى المدن في أعداد متزايدة ، حيث توالدوا وتکاثروا ، حتى صارت كفة الألمان الحضريين ترجع رجحانًا ظاهراً كفة الألمان الريفيين .

وأدت لألمانيا الزعامة في أهم فرعين من فروع الصناعة

الجديدة ، وهما : الصناعات الكيماوية ، والصناعات الكهربائية ، كثمرتين طبيعيتين لتفوق الشعب الألماني في شؤون التعليم ، فزادت الكميات المستخرجة من الفحم الحجري أضعافاً مضاعفة . ومكنت عملية اختراع تمت في إنكلترا ، ونسبت إلى Thomas و Gilchrist العالمين الإنكليزيين ، مكنت عمليتهمما الألمان من الانتفاع اقتصادياً بالحديد الخام المستخرج من مناجم لكسنبرغ ، واللورين . وقد هذا الاختراع إلى تطورات اقتصادية واسعة النطاق ، فتحولت منطقة الفحم في وستفاليا إلى إقليم ممتاز في نشاطه وتركيز الصناعة فيه أغني مقاطعات إنكلترا الصناعية . ففي عقد واحد ( وهو العقد التاسع من القرن الماضي ) ضاعفت الإمبراطورية الألمانية إنتاجها من الصلب ، وضاعفت تقريرياً ما تخرجه من الحديد .

#### نمو البحرية الألمانية :

وبينما كانت الصناعة تتقدم على هذا المنوال ، وتبدل أخلاق الأمة الألمانية ، وأنواع حرق أبنائها ، وجهت عنابة كبيرة لتنمية البحرية الألمانية . فشرعت المراكب الألمانية ، في أعداد سريعة الزيادة ، تشق عباب المحيط الإطللنطي ، وترسو في شواطئ القارة الإفريقية والشرق الأوسط . ففي العشرين سنة التي تخللت سني ١٨٧٠ و ١٨٩٠ ، تضاعفت حمولة سفن الإمبراطورية الألمانية سبعة أمثال ، وزفع الصوت مطالباً بمستعمرات ، وبوضع حماية ضد القمع الأمريكي

والمصنوعات الإنكليزية ، وينهج سياسة نشطة في كل صفع من أصقاع العالم .

#### مبدأ حماية التجارة :

وبلغ ضغط الرأي العام في هذه النواحي من الشدة ، بحيث لم يكن في مقدور أي سياسي ، مهما علا مقامه في أعين مواطنه ، أن يصمد أمامه طويلاً . فأكمل بسمارك على التسليم بمطالبه ، فأقر سنة 1879 مبدأ حماية الصناعة الألمانية كأساس لسياسة الجماركية ، ثم أسرع بعد ثلاث سنين يوجه ألمانيا في طريق الاستعمار ، محتاجاً بأن للضرورة أحکاماً .

ومن الصدف الطريفة التي لاحظها البعض أن تكون الشعبة الاستعمارية في مجلس الديستنستاغ حدت في نفس العام (1883) الذي شاهد تأسيس شركة الكهرباء الألمانية التي يرمز لها بالحروف A.E.G. ، وهي الاتحاد الكهربائي الضخم الذي أقيم على أساس توطيد أعظم صناعة من الصناعات العالمية الألمانية .

#### قوانين التأمين :

واجهت ألمانيا بالاشتراك مع كل مملكة أوروبية أخرى خبرة نتائج انتشار الصناعة الحديثة في بلادها - واجهت ألمانيا سني السبعين والثمانين من القرن الماضي ألواناً قاتمة من الفاقة غير العادلة ، وشعرت بتخوف من مشهد طبقاتها العمالية

القلقة البائسة المسخرة . في حين كان فاجنر Wagner يشنف فيه آذان محبي الموسيقى في أوروبا بعزف الأوبرا الموسيقية خلال احتفالات بيررويت Bayreuth الموسيقية ، كان عمال المناجم والمصانع الألمانية يتعرضون لمصاعب ، ويتوجسون من مخاوف ، تمثل تلك التي عانها عمال المصانع الإنكليزية قبل سن قوانين المصانع .

ولكن بسمارك كان سياسياً بارعاً أعظم من أن تعمى عيناه عن رؤية أهمية المسائل الاجتماعية . فرأى بنافذ بصيرته ، أنه إذا كان يروم بقاء بنيان نظمه ومؤسساته سليماً ، فعليه أن يرضي العمال . إذا لم يتحقق بأن ترك المنافسة الطليقة للأهواء الشخصية غير المكبوحة (سيتتجزأ أعظم قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد ) ؛ ولهذا ظفرت النظم القائمة على رعاية الدولة للضعفاء من أبنائها . هذه النظم التي لم تكن بالبدعة المستحدثة في التقاليد البروسية القديمة - ، ظفرت هذا النظم بمبرر جديد . وأخذت تطالب بتطبيقاتها في دائرة واسعة ، تبعاً للظروف المتغيرة الناجمة عن الثورة الصناعية . فطالبت بأن يحمي الشيوخ من العوز ، ويؤمن العمال ضد أخطار المرض والحوادث .

ومع أن بسمارك لم يكن مجسناً كريماً كاللورد شافتسبري ، ومع أنه لم يضع قوانين تضارع القوانين الإنكليزية الخاصة بالمصانع ، إلا أنه كان في مشروعاته

العظيمة للتأمين الإجباري ضد المرضى سنة 1883 ، وضد الحوادث سنة 1884 ، وضد الشيخوخة سنة 1889 - كان رائداً مبدعاً؛ إذ أنه سبق ، فيما خلا عدم إعداده تأميناً ضد البطالة ، تلك المشروعات والقوانين التي نفذت فيما بعد في إنكلترا على يد المستر لويد جورج سنة 1911 .

وتعود قوانين التأمين الألمانية ركناً من أركان التقدم الاجتماعي . فإن من جميع المستبطات السياسية التي ابتكرت إبان القرن التاسع عشر ، لم يكن هناك ما هو أوثق وأبقى على نظم المجتمع ، من كشف نظام للتأمين يقوم على إعانات مالية تعطى من خزينة الدولة ، ومن جيبي صاحب العمل والعامل ، وبذلك تحمي الطبقة العاملة من شرور المصادرات السيئة في الحياة الصناعية . والحق أن تجنب إشعال الثورة رحراً طويلاً من الدهر في ألمانيا ، يعود إلى درجة ما ، إلى هذه المشروعات النفيسة ، التي حرم بسمارك بواسطتها الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني ، الذي نما نمواً مطرداً برغم وسائل الإضهاد والقمع التي تعرض لها - حرم بسمارك من دافع قوي ، ودعайه لا ترد لإثارة خواطر القراء ، وإذكاء سخط المحرومين .

### سياسة القمع :

ولكن بتقدم بسمارك في السن ، غداً أقل تحملأً للمعارضة . فانتهز فرصة محاولتين مختلفتين لاغتيال

الأمبراطور ، ووضع قانوناً - جدد ثلاث مرات متالية - ضد الاشتراكيين . وبلغ من صرامة ذلك القانون أنه وضع الحرفيات الفردية تحت رحمة البوليس . ولهذا فإن حزب الأحرار الوطني - الذي كان دعامة الأمبراطورية في أيامها الألمانية الأولى ، والمؤيد للحكومة في كفاحها ضد رجال الدين - ، إن هذا الحزب بموافقته على ذلك التشريع المجنح الصارم ، أعلن إفلاسه من المبادئ الحرة الحقيقة .

## الفصل السابع

### بسمارك وسياسة الأحلاف / نهاية عهده

كما ذكرنا سابقاً إن القيسير الروسي وصف مؤتمر برلين عام 1878 بأنه حلف أوروبي موجه ضده بزعامة بسمارك . مما جعله يلتفت إلى فرنسا للتحالف معها .

أما بسمارك الذي كانت تقوم سياساته على عزل فرنسا ، فيبعد أن رأى عصبة الأباطرة الثلاثة لعام 1873 قد انفرط عقدها بسبب أزمة البلقان ، سعى مجدداً من أجل توثيق علاقاته مع النمسا وروسيا وإيطاليا ، خوفاً من أن يتم التقارب بين فرنسا وأحدى تلك الدول أو يتم تقارب بين النمسا وروسيا ضد ألمانيا .

أولاً : التحالف الثنائي البروسي النمساوي 1879 :  
بدأت المفاوضات الدبلوماسية بين النمسا وألمانيا من أجل عقد معاهدة دفاعية هجومية كما كان يرغب بسمارك . ولكن اندراسي وزير خارجية النمسا رفض اقتراح بسمارك بشرط أن تكون المعاهدة دفاعية وذلك خوفاً من أن يجر بسمارك النمسا للحرب ضد فرنسا . واضطر بسمارك للقبول

بالشروط النمساوية .. وتم توقيع اتفاق الحلف الثنائي في ٧  
تشرين الأول ١٨٧٩ ؛ ونص على ما يلي :

١ - إذا تعرضت إحدى الدولتين إلى هجوم روسي ، فعلى  
الدولة الأخرى تقديم المساعدة لرد العدوان .

٢ - إذا نشب الحرب بين فرنسا وألمانيا ، فإن النمسا تقف  
على الحياد .

في الواقع لم يكن بسمارك راضياً كل الرضى عن هذا  
الشرط ، ولكنه رضخ أمام إل الحاج اندراسي . هذا الاتفاق ،  
الذى كان في الواقع موجهاً ضد روسيا أكثر مما هو موجه ضد  
فرنسا ، جعل الامبراطور البروسي وليم الأول يعارض هذا  
الاتفاق لأنه كان يعتقد بأن النمسا لا يمكن أن تكون قد نسبت  
حرب ١٨٦٦ وبالتالي لا يمكن أن تكون حليفاً مخلصاً . بل  
كان يرغب في المحافظة على روسيا التي لم يظهر له فيها  
اتجاهات عدائية . فكتب لبسمارك في ١٠ أيلول : « إنني لا  
أصرح لك بعقد اتفاقية أو تحالف مع النمسا والمجر » . ومع  
ذلك وأمام تهديد بسمارك بالاستقالة تراجع الامبراطور البروسي  
عن موقفه ووافق على الاتفاق بشرط أن لا يذكر اسم روسيا في  
الاتفاقية . ولكن اندراسي الذي لا يريد أن يكون الحلف  
موجهاً ضد فرنسا رفض شروط الامبراطور البروسي .

ولكن بسمارك الذي كان يرغب بإتمام الصفقة حتى ولو  
كانت غير كاملة اضطر للرضوخ لمطالب النمسا ووقع الاتفاقية

بالرغم من تعليمات الأمبراطور البروسي بعدم التوقيع ، وأمام تهديد بسمارك بالاستقالة مرة ثانية اضطر الأمبراطور أن يوافق على الاتفاقية وصرح بأن أولئك الذين يجبروني على هذا القرار سيتحملون نتائجه في الأخرة .

وفي الواقع ، إن الاتفاق الثنائي هو لمصلحة النمسا أكثر مما هو لمصلحة بروسيا . فالنمسا التي حصلت على البوسنة والهرسك بموجب معاهدة برلين ١٨٧٨ ، كانت تخشى من الأطماع الروسية في البلقان . فجاءت الإتفاقية فرصة مناسبة للنمسا من أجل الحد من الأطماع التوسعية الروسية ، وذلك بعد أن ضمنت وقف بروسيا بجانبها إذا حاولت روسيا التعدى على النمسا . أما بروسيا فقد ضمنت جانب النمسا بعدم تحالفها مع فرنسا ووقفها على الحياد إذا اندلعت الحرب مع فرنسا . وهذا ما كان يرمي إليه بسمارك ، أي جعل فرنسا معزولة عن الحلفاء الأوروبيين . كما وأن هدفه الآخر هو جعل روسيا تشعر بدورها بأنها معزولة بشكل خطير مما يجعلها تسارع لإعادة العمل باتفاق الأباطرة القديم .

**ثانياً : إتفاق الأباطرة الثلاثة : البروسي - الروسي - النمساوي : ١٨٨١ :**

كان بسمارك يعرف كيف يفيد من اختلاف المصالح لكي يحتفظ بالتفوق القاري الذي حصلت عليه ألمانيا . وعمل على بناء نظام يسيطر على تفكير الحكومات والشعوب لتدعم

تفوق ألمانيا على القارة ، ولممنع إمكانية نشوب حرب بين روسيا والنمسا والمجر بشأن البلقان .

ومن أجل تضييق الخناق على فرنسا وعزلها ، حاول بسمارك - بالرغم من توقيع التحالف الثنائي والذي هو في الظاهر ضد روسيا كما قال الأمبراطور البروسي وليم الأول - تحسين العلاقات مع القيصر الروسي وعقد تحالف معه . فاستغل الصراع الإنكليزي الروسي في أفغانستان ، ليتظاهر أمام القيصر الروسي بأنه ينوي إجراء مفاوضات مع بريطانيا والتحالف معها ضده . فكلف سفيره في لندن بالوقوف على نيات بريطانيا في حالة الحرب مع روسيا . وكان بسمارك على يقين بأن هذه المحادثات مع لندن ستثير قلق روسيا . وفعلاً سارعت الحكومة الروسية وأرسلت الدبلوماسي سابوروف إلى برلين في ٢٩ أيلول ١٨٨٠ . وقال بسمارك بأنه كان على يقين بأن القيصر سوف يسارع إلى برلين بمجرد الإتفاق مع النمسا .

وخوفاً من تقارب بروسي - بريطاني ، وخوفاً من الاتفاق الثنائي البروسي - النمساوي الموجه ضده ، وجد القيصر نفسه في موقف حرج ، فأقبل مسرعاً نحو بروسيا ليتحالف معها ، ولكن القدر كان قد سبقه ، فقتل سنة ١٨٨١ . وقد نص الاتفاق على ما يلي :

١ - إذا دخلت إحدى الدول الثلاث في حرب مع دولة رابعة ، فعلى الدولتين الآخرين أن تقفا على الحياد .

وهكذا استطاع بسمارك عزل فرنسا . فإذا نشبت الحرب بين فرنسا وألمانيا فإن بسمارك أمن جانب روسيا والنمسا بوقوفهما على الحياد . كما وأن النمسا أيضاً أمنت جانب ألمانيا وروسيا إذا اندلعت الحرب بينها وبين إيطاليا .

أما روسيا فقد استطاعت التفرغ للقضية المستحكمة بينها وبين بريطانيا وتعني به التوسيع الاستعماري في أفغانستان وأسيا .

٢ - بالنسبة للصراع الروسي النمساوي في البلقان فقد تم الاتفاق على وجوب التشاور والتفاهم لتحديد المصالح إذا طرأ أي تغيير على أوضاع الأمبراطورية العثمانية .

كان بسمارك يريد إقامة علاقات حسنة بين روسيا والنمسا بخصوص البلقان وكان يتمني لو يعقد اتفاق بين الدولتين لتحديد مناطق نفوذ على دولة لإنهاء النزاع فتصبح صربيا منطقة نفوذ نمساوية على أن تكون بلغاريا منطقة نفوذ روسية . ولكن أطماع كل من الفيцير والأمبراطور النمساوي لم تكن تسمح لإنهاء الصراع كما كان يرغب بسمارك .

٣ - مدة المعاهدة ثلاثة سنوات . لقد تجددت مرة أخرى عام ١٨٨٤ . في الواقع إن النمسا حاولت عرقلة التفاهم الألماني الروسي لأنها سوف تكون هي المتضررة من العودة إلى اتفاق الأباطرة الثلاثة ، ما دامت قد حصلت على اتفاقية مع ألمانيا موجهة ضد روسيا . ولكن بسمارك

هدد الحكومة النمساوية بأنها ستتحمل مسؤولية عملها إذا رفضت الاتفاق مع روسيا . هذا التهديد أجبر هيمرليه Haymerle الذي حل محل اندراسي في وزارة الخارجية النمساوية للرضاوخ لمطالب بسمارك الذي اقتنع بالتحالف مع النمسا وروسيا من أجل إحكام الطوق على فرنسا ولم يكن يفكر بضم إيطاليا إلى سياسته التحالفية . وقال :

« لسنا في حاجة إلى أن نجري وراء إيطاليا فإنها دولة لا تحفظ بوعودها عندما تتعارض مع مصالحها . والسياسة الإيطالية ذات الطابع المضطرب المتعجرف قد تسبب المتاعب لأصدقائها » .

ثالثاً - التحالف الثلاثي : البروسي - النمساوي - الإيطالي : ١٨٨٢

في البداية لم يكن بسمارك راغباً في التحالف مع إيطاليا لأنه كان لا يثق بالنظام السياسي للمملكة الإيطالية ، لأنه نظام برلماني ديمقراطي وبالتالي لا يستطيع أن يوافق على معاهدات سرية . ولكن من جهة ثانية كان بسمارك بوعيه الاعتماد على إيطاليا في حال قيام حرب مع فرنسا لأنها ستتجبر فرنسا على حشد جيوشها في جبهة الألب بالإضافة إلى الجبهة الألمانية . لذلك عندما سعت إيطاليا إلى التحالف معه عام ١٨٨٢ ، لم يرفض ذلك ، ولكنه طلب من إيطاليا أولاً إنتهاء مشاكلها مع النمسا لأنه يريد أن يحرر النمسا من المتاعب التي

تبينها حركة تحرير إيطاليا . لقد كانت العلاقات الإيطالية النمساوية على ما يرام منذ حروب تحرير إيطاليا وتوحيدها ، وكانت إيطاليا ما زالت تطالب بترستا وترانتان . وبالفعل قبلت إيطاليا نصيحة بسمارك للتفاهم مع النمسا أولاً . فزار الملك الإيطالي فيينا حيث بدأت المفاوضات التي انتهت بتوقيع معاهدة باردو التي سوت المشاكل العالقة بين البلدين . وبعد ذلك وافق بسمارك على توقيع معاهدة التحالف الثلاثي في ٢٠ أيار ١٨٨٢ . لقد نصت المعاهدة على ما يلي :

- ١ - تساعد على دولة حليفتها إذا تعرضت لاعتداء من قبل دولة أخرى .
- ٢ - تلتزم كل دولة الحياد إذا اضطرت إحدى الدول الثلاث إلى شن حرب هجومية على دولة أخرى .
- ٣ - تلتزم ألمانيا والنمسا بمساعدة إيطاليا إذا تعرضت لاعتداء من قبل فرنسا .
- ٤ - تلتزم إيطاليا والنمسا بمساعدة ألمانيا إذا تعرضت لاعتداء من قبل فرنسا . أما النمسا فإنها تساعد ألمانيا إذا تعرضت لاعتداء من قبل دولتين أو أكثر .
- ٥ - مدة المعاهدة خمس سنوات .

إذن فاز بسمارك بمحالفة إيطاليا وزاد من عزلة فرنسا كما وإن إيطاليا خرجمت رابحة بعد أن ضمنت تأييد ألمانيا إذا اعتدت عليها فرنسا . كما وأن النمسا استفادت من المعاهدة

بعد أن ضمنت إيطاليا ، وبالتالي فإنها إذا اضطرت لمحاربة روسيا في البلقان ، فتستطيع عندئذٍ أن توجه جيوشها إلى جبهة واحدة . ولكن إذا كانت المساواة المتبادلة هي التي سادت الاتفاques المعقودة بين إيطاليا وألمانيا ، فإن الأمر لم يكن كذلك بين النمسا وإيطاليا . ففي الوقت الذي التزمت فيه النمسا بمساعدة إيطاليا في حال الهجوم الفرنسي ضده ، فإن إيطاليا تلتزم بمساعدة النمسا في حال هجوم روسي ضد النمسا بل وافقت على التزام الحياد . وإذا كانت الحكومة الإيطالية قد ضمنت عدم تأييد النمسا للبابا بالنسبة « لأزمة روما » ، فإن إيطاليا اضطرت ولو مؤقتاً للتخلّي عن مطالبها في مقاطعة تريستا التي تسكنها شعوب إيطالية .

وكما توقع بسمارك عندما قال إن السياسة الإيطالية ذات الطابع المضطرب المتعرج قد تسبب المتاعب لأصدقائها ، فإن إيطاليا استغلت المعاهدة الثلاثية من أجل تحقيق أطماعها الاستعمارية التوسيعة في طرابلس الغرب .

وهكذا اكتمل عام ١٨٨٢ عقد الأحلاف السرية مع النمسا وروسيا وإيطاليا من جهة وألمانيا من جهة أخرى . وحاول بسمارك أن يتحالف مع بريطانيا ويعقد معها معاهدة سرية على غرار المعاهدات السابقة . ولكن الحكومة البريطانية رفضت توقيع معاهدة سرية حتى تبقى بعيدة عن المحالفات العسكرية طالما أن الخطر لا يهدد أنها وسلمتها .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية إن النظام البرلماني البريطاني لا يسمح بعقد المعاهدات السرية ؛ بل يجب مصادقة البرلمان على أية معاهدة .

رابعاً - التحالف البروسي - الروسي - 1887 :

كان اتفاق الأباطرة الثلاثة حجر الزاوية في سياسة الأحلاف التي اتبعها بسمارك . هذا الاتفاق الذي لم يعد بالإمكان تجديده مرة ثانية عام 1887 بسبب الصراع الروسي النمساوي في البلقان . كان بسمارك يحرص أشد الحرص على عدم إثارة القيسير خوفاً من منازلته لباريس ، لأنه كان يخشى إذا تحالفت فرنسا وروسيا واضطر لمحاربتهمما فإن الجيش البروسي يكون عندئذ يحارب على جبهتين في وقت واحد ، وهذا يؤدي إلى إضعاف الجيش البروسي . لذلك سعى جاهداً من أجل عقد معاهدة سرية جديدة مع القيسير تجدد ما اتفق عليه في حلف الأباطرة الثلاثة . وبالفعل استطاع بسمارك عقد معاهدة سرية جديدة في 18 حزيران 1887 وهي التي يطلق عليها أحياناً معاهدة إعادة التأمين . وعدت فيها كل من ألمانيا وروسيا الأخرى وعداً متبادلاً بالاحتفاظ بالحياد في حالة نشوب حرب مع دولة عظمى أخرى ؛ ولكن إذا كانت هذه الدول العظمى هي النمسا والمجر أو فرنسا ، فإن الحياد لن يكون إلا في حالة حرب عدوانية ؛ ونتيجة لذلك فإن روسيا ستكون غير مرتبطة بأي تعهد إذا ما هاجمت ألمانيا فرنسا .

في هذا الوقت بلغ النظام البسماركي أوجهه . ولكن بسمارك وجد باستمرار ، ورغم كل خبرته ، وكل مهارته الفائقة صعوبة أكثر ؛ ازدادت كل يوم لإدارة هذه الآلة التي أصبحت عجلاتها معقدة للغاية . وكان وبالتالي من الصعب على أي شخص غيره أن يتمكن من تسييرها .

### نهاية أوروبا البسماركية :

عام ١٨٨٨ كان الوضع السياسي الألماني كالتالي : برلمان امبراطوري منتخب حقاً بالانتخابات العام ، ولكنه مدرب على الموافقة على ميزانية الجيش بعد طول المعارضة واللجاج ، وفيما عدا حفنة من أعضائه الاشتراكيين المضطهد़ين الضئيلي الأهمية ، كان هذا البرلمان ينصاع لإرادة حكومة لم يكن في مقدوره أن يغيرها ، وبرلمان بروسي منتخب طبق نظام انتخابي أوليغارقي ضيق - برلمان لم يكن ذات خطر ، ولم يطرأ عليه تغير منذ نشأته خلال الثورة التي نشبت عام ١٨٥٠ .

وفوق تلك الهيئات جمِيعاً تطل شخصية بسمارك الجبارية المسيطرة . في حزيران ١٨٨٨ خلف وليم الثاني أباًه على أريكة الحكم ، وقد حرص الامبراطور الشاب على أن تكون له السلطة العليا والكلمة النافذة في ألمانيا ، فأعلن : « ليس هناك غير سيد واحد في هذه المملكة هو أنا » . ولم يمض عامان على تسلمه العرش حتى دُب الخلاف بين الامبراطور

الجديد ويسمارك العجوز لسبعين : الأول حول السياسة الداخلية والثاني حول السياسة الخارجية . بالنسبة للسبب الأول لقد كان بسمارك من أشد أعداء الحركة النقابية والاشراكية ، ولم يكن مستعداً للتراجع في هذا الميدان بالرغم من أن الامبراطور وليم كان يريد أن يبدأ عهده بدون صدامات دموية . لذلك أراد اتباع سياسة اللين مع المطالب العمالية خاصة وأن الانتخابات النيابية كانت على الأبواب . بينما بسمارك بقي مصمماً على دخول المعركة الانتخابية تحت شعار محاربة الاشتراكية والنقابات العمالية .

أما بشأن السياسة الخارجية فلم يكن الامبراطور الجديد يرى صوابية سياسة بسمارك بالقرب من روسيا . بل أبدى استعداداً للاستماع إلى منتقدي سياسة بسمارك الروسية ، خاصة من قبل جنرالات الجيش وعلى رأسهم رئيس الأركان ؛ فهؤلاء اتهموا بسمارك بأنه موالي للقيصر الروسي ، وأن روسيا كانت تستعد لمحاربة ألمانيا ؛ ولكن بسمارك رفض هذا الاتهام ورفض التقارير العسكرية التي تقول بأن روسيا تستعد لمحاربة ألمانيا واعتبرها عديمة القيمة . ولكن رئيس الأركان أطلع الامبراطور على تلك التقارير السرية التي احتفظ بها بسمارك لنفسه كما أثار غضب الامبراطور الذي اتهم بسمارك بأنه يتبع سياسة إخفاء الحقائق عنه .

بسبب تلك الخلافات قدم بسمارك استقالته في آذار

١٨٩٠ إلى وليم الثاني . وأعقب ذلك ظهور تحول في السياسة الألمانية تجاه روسيا حيث تم التخلّي عن معاهدة الضمانات معها . هذه السياسة الألمانية الجديدة تسبّبت في توجّه جديد للسياسة الخارجية لقيصر روسيا وأدّى إلى تكوين التحالف الروسي الفرنسي . وكان أمل فرنسا من ناحية أخرى أن تخرج من العزلة التي فرضها عليها بسمارك . وكانت هذه نقطة تحول خطيرة بالنسبة لتوازن القوى في أوروبا . وأصبح من الممكّن أن تواجه ألمانيا خطر حرب على جبهتين ، وتدّهورت العلاقات الألمانية الروسية بسرعة .

وهكذا انهار كل ما بناه بسمارك ، وفي أهم نقاطه ، ومع أهم الأجزاء الأساسية في هذا النظام الضخم والمعقد ، ولذلك فإن نهاية أوروبا البسماركية تمثل عهداً جديداً ، وتوازناً جديداً بين القوى على القارة الأوروبيّة ، ويمكّنها أن تعطي مؤثّراتها على السياسة الدوليّة في أوروبا وفي بقية العالم .

بعد أن استقال بسمارك قضى بقية عمره في أملاكه حتى توفي عام ١٨٩٨ عن ثلاثة وثمانين عاماً .

## مراجع البحث

- ١ - أحمد الخنساء : تاريخ العلاقات الدولية . من الثورة الفرنسية حتى الحرب الأولى بيروت ١٩٨٦ .
- ٢ - زين نور الدين زين : الصراع الدولي في الشرق العربي وولادة دولتي سوريا ولبنان . دار النهار ١٩٧١ .
- ٣ - راشد البراوي : العلاقات السياسية والمشكلات الكبرى - مكتبة النهضة القاهرة ١٩٧٢ .
- ٤ - بيرنوفان : تاريخ العلاقات الدولية - ترجمة جلال يحيى - دار القومية القاهرة ١٩٦٤ .
- ٥ - سمعان بطرس فرج الله : العلاقات السياسية الدولية في القرن العشرين مكتبة الأنكلو المصرية القاهرة ١٩٨٠ .
- ٦ - عبد الحميد البطريرق : التيارات السياسية المعاصرة - دار النهضة بيروت ١٩٧٤ .
- ٧ - عبد العزيز نوار - عبد المجيد نعنعى : التاريخ المعاصر - أوروبا من الثورة الفرنسية حتى الحرب الثانية - دار النهضة بيروت ١٩٧٣ .
- ٨ - جواهر لال نهرو : لمحات من تاريخ العالم - الطبعة الثانية

منشورات المكتب التجاري بيروت ١٩٥٧ .

٩ - د . جلال يحيى : أوروبا في العصور الحديثة - حتى الحرب العالمية الأولى الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر ١٩٨١ .

١٠ - فيشر ه . أ . ل : تاريخ أوروبا في العصر الحديث ١٧٨٩ - ١٩٥٠ تعریف نجيب هاشم - وديع الضبع - الطبعة السابعة دار المعارف مصر ١٩٥٨ .

١١ - محمد بدوي : مدخل إلى علم العلاقات الدولية - دار النهضة بيروت ١٩٧٢ .

١٢ - عبد الوهاب الكيالي : موسوعة السياسة - الجزء الأول - المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٨٥ .

١٣ - عادل إسماعيل وأميل خوري : السياسة الدولية في الشرق العربي دار النشر للسياسة والتاريخ بيروت ١٩٦٤ .

١٤ - نور الدين حاطوم : الحركات القومية - دار الفكر بيروت ١٩٦٩ .

١٥ - هانس مورنفتو - السياسة بين الأمم ترجمة خيري حماد - الدار القومية القاهرة ١٩٦٤ .

١٦ - Pierre de la Gorce: Histoire du seconde empire  
Paris 1908.

# فهرس البحث

الصفحة	الموضوع
٣	- مقدمة

## الفصل الأول

٥	مداخل ومخارج في صعود بسمارك
٧	- حرب التحرير الألمانية / ظهور الروح القومية
١٠	- ترجمة بسمارك العمل للوحدة الألمانية
١٥	- مزايا بروسيا / نجاح بسمارك

## الفصل الثاني

١٨	سياسة بسمارك لبلوغ السلطة:
١٨	١ - حرب القرم
٢٢	٢ - بسمارك رئيساً للحكومة
٢٤	- سيرة بسمارك
٢٧	٣ - فلسفة بسمارك السياسية
٣١	- بسمارك والأحرار الألمان
٣٢	- المشروع النمساوي لمواجهة بسمارك وفشلها

### الفصل الثالث

محطات تاريخية لتحقيق الوحدة الألمانية ..... ٣٥
أولاً - الحرب البروسية - الدانمركية ..... ٣٥
ثانياً - الحرب البروسية - النمساوية ..... ٤٢
ثالثاً - الدستور الألماني الجديد ..... ٥١
رابعاً - الحرب البروسية - الفرنسية ..... ٥٤

### الفصل الرابع

سياسة بسمارك بعد الحرب ..... ٦٨
---------------------------------

### الفصل الخامس

المشكلة الشرقية ومؤتمر برلين ١٨٧٨ ..... ٧٣
- التسابق الاستعماري في النصف الثاني من القرن ١٩
ومؤتمر برلين ١٨٨٥ / ١٨٨٤ ..... ٨٥

### الفصل السادس

سياسة بسمارك الداخلية ..... ٩٠
ـ

### الفصل السابع

بسمارك وسياسة الأحلاف / نهاية عهده ..... ٩٧
- مراجع البحث ..... ١٠٩
- فهرس البحث ..... ١١١



## سلسلة أحداث ومشاهير عالمية

تناول هذه السلسلة سير شخصيات عالمية ، من علماء وقادة ، اقترنت أسماؤها بأحداث هامة كان لها أكبر الأثر في مجرى تاريخ البشرية على مر العصور .

جورج واشنطن	حمورابي
هتلر	أختنون
تشرشل	الإسكندر المقدوني
موسوليني	هنبيعل
روملي	يوليوس قيصر
مونتغمري	هرقل
بطرس الأكبر (قيصر روسيا)	الفرد نوبل
إديسون	نابوليون بونابرت
غاندي	بسمارك
جواهر لال نهرو	غاريبالدي
شارل ديغول	كريستوف كولومبوس
أتاتورك	ابراهام لنكولن